يتيمة البيان

في شيء من

علوم القرآن

تأليف

فضيلة الشيخ المحدث الكبير العلامة محمد يوسف البنوري رحمه الله



مجلس الدعوة والتحقيق الإسلامي
جامعة العلوم الإسلامية
علامہ محمد یوسف بنوری ٹاؤن کراچی
www.banuri.edu.pk

وكذلك مكنا ليوسف في الأرض

ولنعلمه من تأويل الأحاديث

والله غالب على أمره

ولكن أكثر الناس لا يعلمون

بسم الله الرحمن الرحيم

يتيمة البيان

في شيء من

علوم القرآن

تأليف

فضيلة الشيخ المحدث الكبير العلامة محمد يوسف البنوري رحمه الله تعالى

مجلس الدعوة والتحقيق الإسلامي

جامعة العلوم الإسلامية

علامه محمد يوسف بنوري ٹاؤن کراچی

2016 - ١٤٣٧

مجلس الدعوة والتحقيق الإسلامي

جامعة العلوم الإسلامية

علامہ محمد یوسف بنوری ٹاؤن کراتشي

Tel. 92-21-34913570, 34927233, 34121152

Fax 92-21-34916819, 34925352

E-mail [illegible]@banuri.edu.pk

[illegible]nuri.edu.pk

تقديم

الحمد لله العلي العظيم ، والصلاة والسلام على حبيبه الكريم ، محمد وآله وأصحابه أجمعين ، وبعد :

فقد وفقّنا الله جلّ وعلا أن نقدّم للعلماء وطلبة العلم درّةً ثمينةً وكنزاً عظيماً باسم "يتيمة البيان في شيئ من علوم القرآن" لشيخي الحبيب المحدث الكبير علامة العصر الشيخ محمد يوسف البنوري رحمه الله تعالىٰ الذي لم تر العيون مثله ولا رأى مثل نفسه وهذه طبعة ثالثة لهذا السِّفر.

الكتاب الذي جمع فيه أبحاثاً قيمةً في علوم القرآن الكريم لمن لهم هيمان بالعلم وقد التقط اللآلى من بحار زخارة وجمعها في هذا الكتاب القيم فخضه تجده بحرا زاخرا ، وذقه فمن لم يذق لم يدر، تجد فيه نفائس ، وتجد فيه ملخصا للأبحاث الطويلة ، نرجو الله تعالىٰ أن يوفقنا للاستفادة من مثل هذه الأسفار الثمينة وتلاوة كتابه ليلاً ونهاراً ، والعمل بما فيه ، وهو الموفق والميسر ، وصلى الله تعالىٰ على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين.

كتبه : الدكتور محمد حبيب الله مختار

خادم جامعة العلوم الإسلامية كراتشي

٢٣-١-١٤١٦هـ

٢١-٦-١٩٩٥م

كلمة الشكر

الحمد لله ! قد وفِّقتُ لأن أقدم رسالتي "يتيمة البيان في شيء من علوم القرآن " في ظروف ضيقة من ناحية الفرصة وشغل القلب ، ولولا مساعدة صاحبي الحبيب الأستاذ محمد حبيب الله المختار ، وحثه عزمي وإشرافه لاختيار الورق والطبع والتصحيح واختيار القطع ، ثم استعداد صاحب المطبعة الأستاذ سيد شاهد حسن المحترم ، لما كنت وفِّقْتُ لتقديمها ، فأشكرهما من جزر قلبي ، وجزاهما الله خيرا ، راجيا من الله أن ينفع بهذا الجهد الضئيل كلّ من له صلة بالقرآن الكريم من تدبر وإمعان ، والله سبحانه ولي كل توفيق ونعمة .

كتبه : محمد يوسف البنوري

يوم الجمعة ٢١ رمضان المبارك

١٣٩٦هـ

تقدمة الطبع الجديد

الحمد لله حمدا يَستجلب رضى الله سبحانه وتعالىٰ، والصلاة والسلام على سيدنا الرسول محمد ما يكافئ منزلته العليا، وعلى آله وصحبه وتبعه دائما أبدا.

و بعد، فكنتُ قدّمت قبل أربعين سنة مقدمة لكتاب "مشكلات القرآن" لإمام العصر المحدث الكبير شيخنا الكشميري المتوفى سنة ١٣٥٢ﻫ رحمه الله، تحوي ما عنيت به من أمور كانت لها أهمية، ومن أهمها موضوع إعجاز القرآن الكريم في نظر إمام العصر -قدس سره- و بعض ما له صلة بقواعد أساسية لفهم التنزيل العزيز، وجاءت أمور استطرادية غيرها، وكنت أتمنى من برهة من الدهر أن أجعلها رسالة مستقلة أحذف منها مالا صلة له بالقرآن الكريم من قرب، وأزيد فيها موضوعات تكملة وإنجازا وإن كان ذكرها اختصارا وإيجازا، وأنا أدري أني ماكنت أردت استيفاءها من أطراف، وأكثرها كانت من قبيل الإشارات اللطاف، وكنت كتبتُها استعجالًا بل ارتجلتُها ارتجالًا حيث كان طبع "المشكلات" جاريا على قدم وساق، وكنت على عزم لحج بيت الله الحرام ورحلة إلى بعض الآفاق [١].

---

(١) كانت الرحلة هذه بدأت بحج بيت الله الحرام والحضور للسلام على سيد الأنام عليه صلوات الله وسلامه، ثم الرحلة إلى القاهرة لطبع كتابين "نصب الرأية لأحاديث الهداية" للحافظ جمال الزيلعي و "فيض الباري على شرح البخاري" لإمام العصر الكشميري -رحمه الله- من جهة "المجلس العلمي" برفاقة الأخ الكريم مولانا السيد أحمد رضا البجنوري - حفظه الله - صاحب "أنوار الباري شرح البخاري" باللغة الأردية.

فجاءت المقدمة وجاوزت شأوها من ناحية كونها تقدمة ، وقد نشرت بعدها عدة كتب كـ" البرهان في علوم القرآن" للحافظ البرهان الزركشي ، و "مناهل العرفان" للزرقاني من المعاصرين ، و عدة كتب في إعجاز القرآن لو كانت أمامي عند تأليف المقدمة لاستفدتُ منها ، والآن فترت الهمة ووهنت القوة ، وضاقت الفرصة ، وكثرت أعمال وأشغال ، وحال الجريض دون القريض، فأقنع بإعادة نشر المقدمة بزيادات(١) وحذف ، وجعلها رسالةً برأسها ، وسميتها : "يتيمة البيان في شيء من علوم القرآن" ، أسأل الله سبحانه أن يجعلها رائعةً في بابها ومع وجازتها نافعة لطلابها ، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم بفضله العظيم ، وهو ولي كل توفيق ونعمة ، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

كتبه : محمد يوسف بن السيد محمد زكريا البنوري الحسيني

خادم المدرسة العربية الإسلامية في كراتشي باكستان

يوم الجمعة ٨, شعبان سنة ١٣٩٦هـ

٦, أغسطس سنة ١٩٧٦م

---

(١) هذه الزيادات إنما هي عبارة عن محاضرات ألقيتُها على الطلبة في شهر رمضان المبارك سنة ١٣٧٩هـ ، و بعد إلقائها كنتُ أقيد خلاصتها بإشارات و إيجازات :

الأولى : المحاضرة في تحقيق لفظ القرآن الكريم وأسمائه .

والثانية : في حقيقة القرآن وتحقيق مسألة الكلام .

والثالثة : القرآن من علم الله فلا تنتهي علومه ، وجهود علماء الأمة في القرآن .

والرابعة : في التفاسير المفيدة وخصائص أكثر كتب التفاسير المطبوعة .

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، ففتح به قلو با غلفاً ، وعيوناً عمياً ، وآذاناً صماً ، فأقام به حججاً ، والصلاة والسلام على النبي الأمي الهاشمي القرشي ، أفصح من نطق بالضاد ، وأوتي جوامع الكلم ومصابيح الدجى ، وعلى آله وصحبه وعلماء أمته وهداة ملته ، الذين كابدوا للدين ، وغاصوا لأجله لجحا فنشروا القرآن والسنة ، وأنفذوا وسعهم في أثرة العلم ودين الحق فوصلوا كتداً وثبجاً ، فهدوا إلى الطيب من القول ، وأصلحوا الفساد ودفعوا الشرعن البسيط وأقاموا عوجاً ، عليهم رحمة الله و بركاته مادامت العيون تبتهج بباهر آيات الله ، والقلوب تشتفي بمعجز كتاب الله وتطمئن به ثلجاً .

أما بعد : فهذه عدة أبحاث في علوم القرآن الكريم جمعتُها في عجلة المستوفز تبصرةً لإخواني طلبة العلم وتلاميذ المعاهد الدينية والمدارس العربية في تلخيص من البيان وإيجاز من القول ، وأنا أدري أن علوم القرآن بحار زاخرة تضل عقول الخليقة من أفذاذ الأمة في غمارها وعبابها دون أن تنتهى إلى ساحلها ، وأنا أدري أن علماء الأمة الإسلامية غاصوا في القرون الخالية في غمارها ، وأخرجوا اللآلي الفاخرة من أعماقها وأغوارها .

وأنا أدري أن ذخيرةً وافرةً تمثلت بينْ أيدينا من ثمرات أقلام الأعيان كالحافظ الزركشي والحافظ السيوطي وغيرهما من أعلام الأمة أرباب التفاسير في كتبهم وأسفارهم، وما بثه علماء البلاغة من الجرجاني والزمخشري وابن المنير

والتّقي السبكي والتاج السبكي والبهاء السبكي وابن القيم والسكاكي والتفتازانى وغيرهم ، علوم وحقائق تحيّر الأفكار والأنظار ،.وتدهش الكبار فضلا عن الصغار ، فما ذا يكون وزن هذه القطيرات من السحب الهطالة ؟ وما ذا تكون هذه الرشحات أمام الوابل الغزير؟ وما ذا يكون شأن كتيب صغير أمام هذه الأسفار الكبيرة ؟ ولكن حسبي أن أقول: إن تلك غمرات من البحار ، ولجج من تلاطم الأنهار الكبار ، وهذه همعات من وابلهم لعقولنا القاصرة التي تقصر سفائن عقولهم عن السباحة في تلك البحار المحيطة ، وعسى أن ينفع بها الله الكريم جيلنا الجديد ، وعسى أن تصادف فيها من غرر النقول من جهابذة هذه العصور ، جاد بها الجواد الكريم في العصور الأخيرة .

ويصدق الحديث النبوي الكريم : ((مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره)) الترمذي من حديث أنس ، وقال في حديث جعفر عن أبيه عن جده: ((أبشروا وأبشروا ، إنما مثل أمتي مثل الغيث لا يدري آخره خير أم أوله ، أو كحديقة أطعم منها فوج عاما ، ثم أطعم منها فوج عاما ، لعل آخرها فوجاً أن يكون أعرضها عرضاً ، وأعمقها عمقاً ، وأحسنها حسناً)) إلخ ، رواه رزين .

فالرجاء من الوهاب الكريم أن ينفع بهذه الرسالة الصغيرة مثل ما نفع بتلك الأسفار الكبيرة ، والله ذو الفضل العظيم .

القرآن الكريم وأسماؤه وتحقيق لفظ القرآن

القرآن الكريم عدّ أسماءه أبو المعالي شيدلة في كتاب "البرهان" له فوصل إلى خمسة وخمسين إسما ، كما ذكره صاحب "الإتقان" ، وأبلغها صاحب كتاب "التبيان" - أي الجزائري - إلى ما يزيد على تسعين اسماً ، كما حكاه صاحب "مناهل العرفان".

والذي عندي أن القرآن أصبح كالعلم الشخصى للقرآن ، وبقية الأسماء هي صفات له ، والأشهر منها : الكتاب ، والفرقان ، والتنزيل ، والذكر ، وأطلق الكتاب ووصف بالمبين كما في تلك الآيات : ﴿الكتاب المبين﴾ في "يوسف" "والشعراء" و "القصص" و "الدخان" وغيرها ، وبـ"العزيز" كما في : ﴿وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه﴾ في "فصلت" وبـ"المنير" كما في قوله: ﴿وبالكتاب المنير﴾ في "الفاطر" وبـ"التشابه" في قوله : ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾ في "الزمر" و وصف بقوله : ﴿فصلت آياته﴾ في "فصلت" وبقوله : ﴿أحكمت آياته ثم فصلت﴾ في "هود".

وأرى أنّ "الفرقان" و إن كان وصفاً ولكنّه أصبح كالعَلَم بعد القرآن فغلبت الوصفية فيه ، وقوله تعالىٰ : ﴿تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ يؤيده نحو تأييد ، فالقرآن علم لهذا الكتاب المبين كاسم الجلالة

علم له تعالىٰ جل ذكره ، والفرقان كالرحمن جرى مجرى العلم وإن كان في الأصل وصفا كما يؤ يده قوله تعالىٰ : ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمانَ أيًّا مّا تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ وكذلك الكتاب غلبت عليه العلمية في سياق بعض الآيات كما أطلق علماً في اصطلاح أهل الفقه والأصول .

ثم اختلفوا هل هو مشتق أو غير مشتق في الأَصل ؟ فالذي اختاره الإمام الشافعي كما حكاه البيهقي والخطيب وتبعه جماعة أنه علم غيرُ مشتق خاص بهذا الكتاب الذي نزله على سيدنا محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ ، ثم هو مُعرَّف غير مهموز وبه قرأ ابن كثير المكي من السبعة ، فليس هو مشتقاً من القراءة عند هؤلاء، والذي اختاره الإمام أبو الحسن الأشعري وأقوام أنه مشتق في الأصل غلبت عليه العلمية .

ثم اختلفوا في أصله فقال الأشعري : إنه من "قرنت الشيئ بالشيئ إذا ضممته" ، والنون أصلية ، وسمي به لضم السور والآيات والحروف فيه بعضها ببعض ، وهذا القدر لا يكفي في وجه التسمية إلا أن يقال : إن ضم كلماته بعضها إلى بعض بوصف بديع ونسق عجيب كأنه القرآن وما عداه كأنه ليس بقرآن ، وكان شيخنا -رحمه الله تعالىٰ - يجنح إلى هذا حيث كان يقول : معنى القرآن بالفارسية "نشست" أي اتساق الكلمات بعضها ببعض واقتران عجيب .

وقال الفراء : هومن "القرائن" ؛ لأن الآيات يصدق بعضها بعضا ، فإذن عنده النون أيضا أصلية وغير مهموز في الأصل ، فوزنه فعال لا فعلان على هذين القولين ، و يقول الزجاج : الصحيح أنه مهموز وترك الهمز من باب التخفيف ونقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها ، وإليه ذهب جماعة من أئمة العربية منهم : أبو عبيدة معمر بن المثنى ، واللحياني ، وقطرب وغيرهم .

ثم اختلفوا فقال اللحياني : القرآن مصدر كالغفران سمي به المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر فهو من القراءة ، وقيل : من القرء بمعنى الجمع ؛ لأنه جمع السور بعضها ببعض ، وقال الراغب: سمي به لكونه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة .

وأقول : أو جمع فيه ما يحتاج إليه الأمة من أمر معادهم ، وما يتوسل به إلى ما فيه الفلاح والسعادة والنجاح والنجاة ، وإذا كان من القراءة فسمي به لأنه يتلى دواماً في العالم طول الدهر آناء الليل وأطراف النهار ، وقراءته مطلوبة ؛ فإن في قراءته أجرا للقارئ ، أو كأنه المقروء دون غيره لما اتصف من نسق في ترتيب حروفه ، ونظم بديع في تركيب كلماته ، ورصف عجيب في أسلوبه وآياته ، فالأحسن إذن أن يقال : إنه كان في الأصل مشتقا من القرء أو القراءة على هذه المعاني الكريمة ، ثم غلبت عليه العلمية على وصفه ، فأصبح كالعلم الشخصي لكلام الله القديم ، والذي نزل على سيدنا محمد بن عبد الله خاتم النبيين ﷺ ، نزل به الروح الأمين جبريل من الله رب العالمين ، الذي جمع بين دفتي المصحف ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، ولام التعريف دخلت عليه نظراً إلى اصل وضعه ؛ لأن أصله وضعاً عام بالمعنى الوصفي ، فهذا يكون قولاً وسطاً في الموضوع بين كونه اسم علم غير مشتق غير مهموز وغير معقول المعنى ، وبين كونه وصفاً مشتقاً من القرء أو القراءة مهموزاً معقول المعنى لتلك الوجوه المذكورة .

فتلخص : أنه كان في الأصل وصفاً مشتقاً من القرن ، أو القرء ، أو القراءة ، ووجوه التسمية بكل كلها معقولة واضحة غير أنه لم يبق وصفاً بل أصبح علماً بالغلبة ، فإذن لا يتجرد هو عن معانيها الأصلية اللائقة به ، فهي مرادة في وجه أصل التسمية وإن كان غَلَبه العلمية ، ولغلبة العلمية ربما يذهل عن تلك المعاني

السامية والوجوه الكريمة في الاشتقاق ، فهذه المعاني الوصفية ملحوظة لحاظاً ثانوياً ، والعلمية ملحوظة لحاظاً أولياً ، وتعبيرات أهل البلاغة تلاحظ فيها هذه المعاني الثواني ، وبها تحصل المزية والميزة ، فكيف بتعبير القرآن الحكيم الذي وصل في البلاغة إلى حد الإعجاز ، وتقاصر عن شأوها أهل الحقيقة والمجاز ، فهذا إذن قول فصل في هذا المعترك ، فخذه راضياً مرضياً وكن من الشاكرين .

ثم الملائم بالذوق نظراً إلى التعبير القرآني أن يوصف كل اسم بما وصفه الله سبحانه في تنزيله العزيز ، فيوصف القرآن بالحكيم ، وبالكريم ، وبالعظيم ، وبالمبين ، وبالمجيد ، فهو "قرآن كريم" وهو "قرآن حكيم" وهو "قرآن مجيد" وهو "قرآن عظيم" و "قرآن مبين" كما وصفه الله في مختلف السور ، ووصف الكتاب بالمبين في عدة سور ، ووصف بـ"العزيز" في قوله : ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾ في "حم السجدة" ووصف بـ"المبارك" في قوله تعالىٰ : ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك﴾ في سورة "ص" ، وهكذا يلاحظ دقة التعبير القرآني في جميع الأسماء والصفات ، وتراعى المزايا فيه لكن لا نتجاوز تلك المواقف اللطيفة التي تقصر عقول البشر دون غايتها :

رتب تقصر الأماني حسرى
دونها ما ورائهن وراء

وبالله التوفيق.

حقيقة القرآن وتحقيق مسألة الكلام

لما ذا اضطرت الأمة من المحققين إلى أمثال هذه التدقيقات ؟

أصبحت للمعتزلة شوكة في عهد المأمون العباسي ، وكان أحمد بن دؤاد المعتزلي صاحب الهياج بن العلاء السلمي أحد أصحاب واصل بن عطاء رئيس أهل الاعتزال وصاحب يحيى بن أكثم القاضي مقرباً لدى المأمون ومعظماً ، وكان تأثر منه الخليفة المأمون واعتقد معتقده في مسألة خلق القرآن ، فاغتنم ابن دؤاد هذه الفرصة ، واستثمر هذه النهزة ، فحث الخليفة على أن يمتحن المحدثين في هذه المسألة ، وأن يعاقب كل من خالفه ، وعداء أهل الاعتزال مع المحدثين لاختلاف مناهجهم وتفرق نحلتهم معروف ، وهم على طرفي النقيضين، فكان من جرّاء ذلك حدوث فتنة أحمد بن حنبل الإمام ، وأصبحت "محنة أحمد" عنواناً لتلك الحادثة التاريخية في كتب التاريخ ، وتمثل فيها العدوان والظلم والمعاقبة مع كبار أولياء الله بأجلى مظاهرها .

وأصبحت هذه المحنة تعدُّ بجنب وقعة الردة في عهد الصديق ، ويوم شهيد الدار ابن عفان ، وافتتحت في عهد المأمون ثم المعتصم ثم الواثق إلى نحو ثلاثين شهراً ، ثم انتهت في عهد المتوكل ، وبقي هذه المدة الطويلة مقيداً مسجوناً ، وضرب الإمام أول مرة بالسياط ضرباً شديداً مبرحاً جدًّا إلى أن تمزقت قطع من لحمه ، ثم قطع ذلك اللحم الميت من جسده لعدم رجاء اندماله ، واستوفى أرباب

التاريخ الكارثة الفادحة ، فراجعوا "البداية والنهاية" لابن كثير ، أو "الكامل" لابن أثير وغيرهما ، وبذرت الواقعة هذه بذور العداوة في قلوب أهل الحق نحو أهل الاعتزال ، وكان أحمد -رحمه الله- أعلن بأنّ القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأنه من علم الله مع اعترافه بأن اللفظ مخلوق ، واعترافه بأن أفعالنا مخلوقة كما ذكره ابن كثير في "البداية".

وقد استدل الإمام أحمد في غضون بحثه أول مرة مع ابن أبي دؤاد بآيات التنزيل ، وأجاب عما أوردوه إجابةً شافيةً ، لكن المعتصم لم يكن عنده من الذكاء والعلم ماكان عند المأمون ، وأرى أن المأمون لو أمهله الأجل وسمع أدلة الإمام وبحثه لربما رجع عن معتقد أهل الاعتزال ، والمعتصم لما لم يكن عنده ذلك فاستثمر ابن أبي دؤاد غرته وعدم حذقه في الكلام ، فيقول ابن أبي دؤاد في الإمام : "إنه ضال، مضل ، مبتدع ، اقتله ودمه على رقبتي" ، ولم يكن عنده غير هذا ، وبراعته في الكلام وفصاحته في النطق زينت له نفسه الأمارة هذه المكيدة بصالحي الأمة .

وكان أحمد لكونه في معرض إعلان معتقد أهل الحق ما كان يحب أن يورّى بكلمة ، وماكان يحب أن يقول أحد : إن لفظه بالقرآن مخلوق ، لكي لا يتسلل به أهل الباطل فيجره إلى معتقدهم وإن كان هو كلاماً حقاً في نفسه ، لكنه كان يوهم إيهاماً لما يقوله أهل الاعتزال ، ولذلك كان ينقد على حسين ابن علي الكرابيسي قوله في مسألة اللفظ ، فدخل على المحدثين من هذه الجهة شيئ من النفرة عن علم الكلام ، فحدثت اللفظية والواقفية عن هذه الوقائع ، ولم يبق في الممتحنين من أعلن بصراحة غير أربعة :

١ - الإمام أحمد وهو رئيسهم .

٢ - ومحمد بن نوح الجند نيسابوري ومات في الطريق .

٣- ونعيم بن حماد الخزاعي ومات في السجن .

٤ - وأبو يعقوب البو يطى ومات في سجن الواثق .

ولم يعذب عذاباً شديداً غير الإمام أحمد ، وأصبح مداراً ، و به رفع الله علم أهل الحق وراية معتقد أهل السنة ، فأصبح ذكره مشهوراً مشهوداً على المنائر والمنابر وتمت بشارة رؤ يا شيخه الشافعي في مصر بتبشير رسول الله ﷺ الإمام أحمد باستقامته في عقيدة أهل الحق ، وأن يرفع الله له علماً إلى يوم القيامة ، فبعث الشافعيّ بها صاحبه ر بيع إلى أحمد كما ساقه ابن كثير وغيره عن البيهقيّ .

و بالجملة : من أجل ذلك اضطرّ المتكلمون والمحققون من أهل الحق إلى تنقيح مسألة الكلام من كتاب الله وسنة رسوله ، ثم أدلة العقل واللغة واللسان ، فبحثوا وحققوا ونقحوا بحيث لم يدعوا مجالاً لمجادل أو مشاغب ، وأوفاهم بحثاً وتدقيقاً واستيفاءً لأطراف الموضوع الإمام أبو بكر الباقلاني في كتابه "الإنصاف" فكفى وشفى ، فجزاه الله وجزاهم خيراً .

ذكر مناط الاختلاف بين أهل السنة وأهل الاعتزال

فنلخص الآن بأن نقول : إن مناط الاختلاف بين أهل السنة وأهل الاعتزال على العقيدة بالكلام النفسي لله تعالىٰ .

فأهل السنة يقولون : إن لله سبحانه كلاما أزلياً ، وإنه كان متكلماً في ما لم يزل ولا يزال ، والكلام له تعالىٰ صفة قديمة أزلية غير متصفة باللفظ ، مجردة عن الحرف والصوت ، قائمة بالله تعالىٰ قيام بقية الصفات من العلم والإرادة والسمع والبصر وغيرها .

والمعتزلة أنكروا وجود الكلام النفسي وحصروه في اللفظي فقط ، وظاهر أن نفي اللفظي عنه تعالىٰ نقطة وفاق بين المذهبين ، خلافاً للكرامية والحشو ية

والسالمية القائلين بقيام هذا الكلام المركب من الحروف والأصوات بالله تعالىٰ ، وهو مع حدوثه قائم به ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وما ذكر عن الإمامين أبي حنيفة وأبي يوسف أنهما اتفقا بعد مناظرة طويلة أن من قال بخلق القرآن فهو كافر كما في "شرح أصول البزدوي" للبخاري ، وحكاه البياضي في "إشارات المرام" ، فمصداقه هذا المذهب الشنيع من القول بخلق القرآن لتركبه من اللفظ والصوت ، ثم قيامه بالله تعالى لا مذهب الاعتزال ، حيث نزهوا الله سبحانه مثل أهل السنة عن اللفظ القديم والحرف القديم والصوت القديم ، كما يتضح ذلك من كلام البياضى في "إشارات المرام" ، فهذا هو تحرير محل النزاع بين الفريقين .

توضيح عقيدة أهل السنة

ثم تحرير عقيدة أهل السنة وتوضيحها بأن نقول : كما أن للكلام اللفظي للبشر تعبيرين :

١- المعنى المصدري أي التكلم والتلفظ .

٢- الحاصل بالمصدر أي المتكلم به .

فكذلك هناك كلام نفسي وله معنيان ، فكما أن اللفظي فعل الإنسان باللسان بواسطة الصوت والمخارج في التعبير الأول ، فكذلك الكلام النفسي فعل قلب الإنسان ونفسه لم يخرج إلى دائرة الجوارح من اللسان واللهاة والحلقوم والحنجرة ، وكما أن اللفظي هو المتلفظ به بعد ما صدر من المرأ بالتلفظ وهو ثمرة التلفظ في التعبير الثاني ، فكذلك النفسي هو ما حصل في النفس بعد ما تصوره وتفكره وفرغ من تصويره وتشكيله وتخييله ، وإثبات هذا الكلام النفسي بالمعنيين قد استوفاه المتكلمون بالأدلة العقلية والنقلية ، كما تجده في "شرح المقاصد" و

"شرح العقائد النسفية" كلاهما للتفتازاني ، وشروح "العضدية" وحواشيها ، و يكفي ما ذكره السيد الآلوسي في مقدمة تفسيره بكل وضوح وجلاء ، فالله سبحانه منزه عن اللفظي بالمعنيين ، وأما الكلام النفسي بالمعنيين فثابت لله تعالىٰ ، فالمعنى الأول على تعبير الآلوسي للحق تعالىٰ شأنه صفة أزلية منافية للآفة الباطنية التي هي بمنزلة الخرس في التكلم الإنسانى اللفظي ليس من جنس الحروف والألفاظ، وهي واحدة بالذات تتعدد تعلقاتها بحسب تعدد المتكلم به ، وأما المعنى الثاني له تعالى فهي كلمات غيبية وألفاظ حكمية أزلية مترتبة غير متعاقبة في الوضع الغيبي ، فإن التعاقب يستدعى زماناً والله سبحانه متعال عن الزمان وما في الزمان، وللمترتب الغير المتعاقب نظائر في هذا العالم أيضا مثلاً طابع الخاتم إذا ختمت به ، وألواح الطباعة المعروفة اليوم ، والصور المرئية في المرائي ، والأشباح في المياه ، وما إلى ذلك من أمثلة تكون هناك ترتب من غير تعاقب ، فالترتب لايستلزم التعاقبَ في عالمنا ، فكيف في صفات الله تعالىٰ شأنه؟!! .

و بالجملة : ليست أية دقة في فهم الكلام النفسي له تعالىٰ بالمعنى الثاني ، نعم بالمعنى الأول كانت فيه دقة ، ولكن انحلت بعد دقة النظر ولله الحمد ، وعلى كل حال ليس المدار على المعنى الأول فيما أرى ، فإذن وضح أن يقال : إن القرآن هو كلام الله الغير المخلوق ، مكتوب في المصاحف ، محفوظ في الصدور ، مقروء بالألسنة ، مسموع بالآذان ، غير حالّ في شيء منها ، وهو في جميع هذه المراتب قرآن حقيقة شرعية معلوم من الدين بالضرورة ، فهذه الأشياء و إن كانت حادثة غير أنها تجلت فيها تلك الصفة الكلامية ، وتنزلت إلى هذه المراتب ولم تخرج عن كونها منسوبة إليه تعالىٰ ، فالكل مظاهر ومرائي ومشاهد لتلك الصفة ، وهي غير حالة فيها حيث لم تفارق الذات ولا تفارقه أبدا ، والصورة في المرآة تتجلى ، و يقال له : صورة الرائي ، وهي غير حالّة فيها ، وليست فيها مادة بل كمية فقط .

بيان المراتب الأربعة للوجود في الكلام

وليكن أمامك لمزيد فهم هذه الأمور ما ذكره التفتازاني وغيره من مراتب أربعة للوجود: ١- وجود في الخارج. ٢- ووجود في الذهن.
٣- ووجود في العبارة. ٤- ووجود في الكتابة.

والوجود الخارجي هو الوجود الحقيقى، والبقية وجود مجازي عند التحقيق، فكما أن الكتابة دالة على العبارة، والعبارة دالة على ما في الذهن، وما في الذهن على ما في الخارج، فاتحاد هذه الأشياء في تعريف القرآن ليس باعتبار المفهوم بل باعتبار المصداق فقط، فالكل صور ومظاهر وتعبيرات عن تلك الحقيقة الحقة القائمة بالله تعالىٰ، وصفة أزلية قديمة غير زائلة عنه تعالىٰ، فإذن هناك قراءة و مقروء، وكتابة ومكتوب، وتعبير ومعبّر عنه، وتلاوة ومتلو، فالتلاوة والقراءة والتعبير من أفعالنا وهي مخلوقة، والمتلوّ والمقروء والمعبّر عنه هو كلام الله القديم الصفة الأزلية القائمة به تعالىٰ، فإذا قلنا للمصحف المكتوب، المقروء بالألسنة، المسموع بالآذان: إنه قرآن، فهو بهذه الملاحظة لا أن النقوش بعينها والأوراق بعينها والألفاظ القائمة بنا بنفسها هو القديم وإنما هي تعبيرات وعبارات عن ذلك المعنى القديم الأزلي على حد ما قيل:

عباراتنا شتى وحسنك واحد وكـل إلى ذاك الجمال يشـير

وأظن في هذا القدر مقنع وكفاية، وهذا الفرق نفسه في الأصل محكي عن الإمام أحمد نفسه، ثم فصله البخاري -رحمه الله- في رسالته المختصة بخلق أفعال العباد، وكذلك في كتابه "الصحيح" في كتاب التوحيد والرد على الجهمية، ثم استوفاه بحثاً وتحقيقاً الإمام الباقلاني في كتابه "الإنصاف" بما لا مزيد عليه، والحمد لله أولاً وآخراً.

وما ذكره الشيخ المهائمي في مقدمة "تبصير الرحمن في تفسير القرآن" من القول بالاشتراك في إطلاق القرآن الكريم على ما في اللوح المحفوظ ، وعلى ما في الصدور ، وعلى ما في المكتوب في المصاحف ، والمقروء بالألسنة ، فهو عندي خلاف التحقيق ، والأولى بالتحقيق أن يقال : حقيقة شرعية فيها جميعاً وإن كان مجازاً لغوياً في بعضها ، اللهم إلا أن يأوّل كلامه بالاشتراك المعنوي دون الاشتراك اللفظي ، والله أعلم .

ثم إن ما كان الإمام البخاري يصرّ به إصرارا : القرآن كلام الله غير مخلوق ولفظي بالقرآن مخلوق ، أو قوله : وأفعالنا مخلوقة وألفاظنا من أفعالنا ، وما كان ليكتفي بما كان يكتفي به الإمام أحمد بالجملة الأولى حتى حدث ما حدث من اختلاف ونفرة بينه وبين شيخه الذهلي ، فوجهه كأنه يردُّ على الحشوية والكرامية والسالمية من ادعائهم بقدم اللفظ وقدم الحرف والصوت لكي لا يجدوا هؤلاء في كلام البخاري موضع حجة لادعائهم ، فكما كان عند الإمام أحمد وجهة الدفاع عن أهل السنة والرد على بدعة الاعتزال ، فكان كذلك في نظر الإمام البخاري وجهة الرد على هؤلاء الحشوية الذين حملوا كلام الإمام على غير محله الصحيح ، ووسعوا كلامه إلى مالم يرده الإمام ، فكان كل من الإمام أحمد والإمام البخاري قام بالدفاع عن مسلك أهل الحق والقضاء على أهل البدع بما يلائم الجو أو المصلحة والحكمة ، ولعل شيخه الذهلي كان على ذوق الإمام أحمد ، كان يحب أن يقتنع بما اقتنع به الإمام أحمد ، وربما يكون ذلك نظراً إلى مصلحة بلده وهو أعرف بحال بلده عن الإمام أبي عبدالله البخاري ، والله أعلم . ونظير ذلك اختلاف أبي حنيفة والمحدثين في مسألة الإيمان ، فكان نظر الإمام إلى الخوارج والاعتزال وكان نظرهم إلى المرجئة ، وهكذا تختلف الملاحظ والوجهات .

القرآن من علم الله فلا تنتهي علومه
وجهود علماء الأمة في القرآن

قال تعالىٰ : ﴿أنزله بعلمه﴾ [النساء]

وقال : ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ [هود]

وقال سبحانه وتعالىٰ :

﴿قل لوكان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد
كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا﴾ [الكهف]

وقال:

﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده
سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾ [لقمان]

هذه أربعة مواضع من آيات التنزيل العزيز ، بيّن الله فيها أن ما حواه القرآن من العلم الإلهي إنما هو من منبع إلهي لا ينتهي ذلك العلم ، والعلم الإلهي الغير المتناهي مثله الله سبحانه بما في آيات التنزيل العزيز من أن أشجار البسيطة لو صورت منها أقلام ، وبحار هذه الكرة الأرضية جعل منها حبر و مداد، تصوروا قليلاً هذه الوسعة ، وكم يمكن أن يصنع من شجرة واحدة من الأقلام للكتابة ، ثم هذا البحر الغزير من بحار البسيطة فاقدروا قدرها من قطرات وكم

يكتب بكل قطرة ، والبحر الهادي وحده سطحه المربع من الأميال نحو ستين مليون ميل على ما قدروه من المسافة ، ثم تصوروا مرة أخرى هذه الأقلام الكثيرة المدهشة ، وهذه المياه الغزيرة الموحشة ، لنفد هذا البحر وجفت هذه الأقلام قبل أن يحصى العلم الإلهي العظيم ، فسبحان الله العظيم ! ما أروع وما أبلغ هذا المثال القرآني العظيم ، إنما هو كلام خبير عليم ليس بقول شاعر ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ فلما كان علم الله تعالى بهذه المثابة ، والقرآن نزله بعلمه هذا ، والمتكلم يتكلم بحسب علمه وبما يليق بمرتبته ، فإذن اتضح أن علوم القرآن وما حواه من الحقائق الإلهية والإشارات الربانية لا يحيط بها إلا من أنزله ، فسبحان الله العليم بمزايا كتابه العزيز وعلوم قرآنه العظيم ، وصدق من قال :

جميع العلم في القرآن لكن
تقاصر عنه أفهام الرجال

ثم يلاحظ بعد هذه التعبيرات القرآنية ما عبّر به أعلم أفراد البشر ممن مضى وممن غبر ، سيد الأنبياء سيدنا الرسول العربي الهاشمي ﷺ في أقواله الكريمة من أحاديثه الحكيمة ، فقوله ﷺ في حديث "جامع الترمذي" من طريق الحارث الأعور عن علي رضي الله عنه في حديث طويل ما لفظه : ((ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه)) وفي رواية : "ولا يملُّ قاريه" والحديث رواه ابن أبي شيبة وإسحاق والدارمي والبزار أيضا كما ذكره الزيلعي في "تخريج أحاديث الكشاف" وهو في المطبوع من "تلخيص الحافظ ابن حجر ذيل الكشاف" (٣٩٤-١) وقوله ﷺ في حديث ابن عباس عند ابن أبي حاتم كما في "الإتقان" : ((القرآن ذو شجون ، وظهور وبطون ، لا تنقضي عجائبه ، ولا تبلغ

غايته)) ، إلخ.

فانظر إلى هذه الكلمات النبوية "لا تنقضي عجائبه" ، ولا تبلغ غايته كيف أوعبت كل سعة وكل عمق في علوم القرآن ، وقد تخصص في الصحابة برواية أمثال هذه الأحاديث علي المرتضىٰ ، وفيه يقول ﷺ : ((أنا مدينة العلم وعلي بابها))، ثم ابن عباس ذلك الحبر وذلك البحر قال فيه ﷺ : ((اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل)).

والحديث الأول له شاهد من حديث ابن مسعود حبر القادسية عند الحاكم في "المستدرك" عن عبد الله - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : ((إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن حبل الله ، ونور مبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن تبعه ، لا يزيغ فيستعتب ، ولا يعوج فيقوم ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد ، اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته ، كل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول :" ألم" حرف ، ولكن "ألف" و"لام" و"ميم")).

ومن حديث معاذ أعلمهم بالحلال والحرام عند الطبراني كما ذكره الزيلعي في "تخريج أحاديث الكشاف" وحديث "الصحيح" عند لقاء سيدنا موسى عليه السلام سيدنا خضر عليه السلام وقول خضر لموسى عليهما السلام : ((ما نقص علمك وعلمي من علم الله سبحانه إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر)) ، وقول العلماء : إنه تمثيل فحسب و إلا فهناك نسبة إلى الغير المتناهي وهو علم الله ، وهنا نسبة إلى المتناهي وهو البحر ، وكان سهل بن عبدالله يقول : "لو أعطى العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه ، لأنه كلام الله ، وكلامه صفته ، وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية

لفهم كلامه ، وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه ، وكلام الله غير مخلوق ، ولا تبلغ إلى نهاية فهمه فهوم محدثة مخلوقة" ، "البرهان" للزركشي .

ثم لاحظ من أقوال الصحابة في علوم القرآن ما روي عن باب مدينة العلم سيدنا علي -رضي الله عنه وكرم الله وجهه - من حمل وقر سبعين بعيراً من تفسير سورة الفاتحة كما حكاه السيوطي عن المحدث العارف ابن أبي جمرة ، وذكره الغزالي في "الإحياء" وقد كشف السيوطي عنه بما يقرب به إلى الفهم .

وأقول : هو كالبديهي لا يحتاج إلى بحث وتدقيق ، فإن الفاتحة أم القرآن ، وجميع ما صدع به القرآن الكريم موجود فيه إجمالاً كوجود الشجر العظيم في بذره ، ففيه مسائل الذات الجليلة والصفات والأسماء ، وفيه العوالم كلها ، ثم علاقة الربوبية في الكل بما يلائم طبيعته وبيان ذلك ، وبدائع صنع الله فيها ، وهل يمكن إحصاء العوالم وعجائبه بل لا يمكن إحصاء نوع من أنواع العالم ، ويحتاج بيان كل صنف من الحيوان إلى دائرة المعارف العامة ، فيحوى مجلدات، ثم بيان يوم القيامة وأحوالها وبدائعها وأهوالها وفظائعها المشار إليها في قوله : ﴿مالك يوم الدين﴾ ثم الأحكام التكليفية والعبادات وما يحتاج إليه المرؤ في حياته وما إلى ذلك ، ثم أنباء الأنبياء والمقربين من الشهداء والصالحين ، ثم الفرق الباطلة أهل الملل الضالة ، فلو فتح الله سبحانه لعبد من عباده هذه العلوم والحقائق الربانية ما يتعلق بجزء واحد لنفد العمر قبل إحصائه ، وقد أوضحت بعض الجهات تمثيلا في الدرس من جهات الربوبية الدقيقة ، ومن سعة ملك الله على ما وقف عليه الباحثون اليوم من علماء الطبيعة ، وراجع ما ذكره الشيخ الجلال السيوطي في "إتقانه" من النوع الخامس والستين في العلوم المستنبطة من القرآن ، ثم لاحظ جملة ما وصل إلينا من أقوال كبار التابعين الذين هم سادة الأمة بعد الصحابة ، ثم ما ألفه علماء الأمة

وأبدوا من مكنون علوم القرآن في تآليفهم الكبيرة العظيمة ما ذكرت شيئا منها في ما سيأتى قريبا وما ذكره شيخنا الكوثري في "مقالاته" (ص-٤٠٣) ، ولم ألاق الكوثري ولا عرفته ولا ظهرت مقالاته حيثما ذكرت هنا ما ذكرت ، وقد فصلت كل ذلك في المحاضرة تفصيلا وألقيته عليهم تدليلا على سعة علوم القرآن وتمثيلا، والله سبحانه هو الموفق لكل خير، فالحمد لله رب العالمين ، وراجع ما ذكره الغزالي في "الإحياء" من الربع الأول في الباب الرابع في فهم القرآن (٢٦٠-١ و ٢٦١) وكذا شرحه "الإتحاف" للزبيدي.

وعلوم القرآن التي لا تنتهي ما وقعت الإشارة إليه في قوله تعالىٰ :﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ فعلومه الظاهرة جاء فيه أصولها وكلياتها ، والباطنة جاءت فيه إشارات لطيفة تهدي إلى معارف غامضة وحقائق دقيقة سامية ، وبالجملة : علوم القرآن ما له صلة بمقاصد القرآن الكريم من ظواهره المرادة ، وحقائقة المودعة فيه مما فيه هداية و إرشاد إلى العباد ، وتنبيه بما له علاقة من أمر المبدأ والمعاد ، وما عليه سعادة الدارين حقاً ، وما يكشف من خبايا محاسنه من علوم مرضية صحيحة ، وقد سرد صاحب "مناهل العرفان" ما وقف عليه من تأليف في علوم القرآن من علي بن إبراهيم الحوفي المتوفى ٣٣٠هـ إلى من ألف فيها في القرن الرابع عشر ، فراجعه فاستقصى جيداً .

القرآن وعلومه ومآثر الأمة فيها

إن كتاب الله جلّ ذكرهُ كما قال :

﴿و إنه لكتاب عز يز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه
تنزيل من حكيم حميد﴾ [حم السجدة]

كتاب بهر العقول وسحر الفحول من الحكماء والعقلاء والعرفاء والفصحاء ، سجدت جباه مصاقع الفصحاء لبديع نظمه من الرصف العجيب ، والبيان المعجز، حتى خلبت عقولَهم روعتُه المدهشة وطلاوته البارعة ، وخرَّت وجوهُ أعاظم الحكماء لحِكَمِه العالية وأسراره الغامضة التي كلَّت دونها أفهامُهم ، وحسرت دون ذروة سنامها أفكارهم وأحلامهم، وغاص أكابر العرفاء في بحار معارفه وحقائقه ، فأعيتهم لججها دون الوصول إلى دركها الغامر ، الذي انقطعت دونه مطامعهم، وخاض العلماء والفقهاء في غماره فأخرجوا إلى الأمة لآليه وجواهر أصدافها الكامنة ، فأصبحت درَّة التاج لإكليل نظام العالم ، وغرَّةً لجبين تهذيب العصر .

وهو كتاب قال عزَّ من قائل في وصفه وقد أنزله بعلمه :

﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾ [ص]

وقال تعالىٰ :

﴿وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه
تنزيل من حكيم حميد﴾ [حم السجدة]

وقال تعالىٰ:

﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرُّ منه جلود الذين
يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ [الزمر]

وقال تعالىٰ:

﴿تنزيل من رب العالمين نزل به الرّوح الأمين على قلبك لتكون
من المنذرين بلسان عربي مبين﴾ [الشعراء]

وقال تعالىٰ: ﴿وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾ [الشورى]

وقال أفصح الناطقين بالضاد، أفضل من أوتي الحكمة وفصل الخطاب، أعلم الناس من مضى ومن غبر، وأعرفهم بالله قاطبةً، وأنفذهم بصيرةً بأسراره وحكمه، سيد الرسل، خاتم الأنبياء محمد ﷺ في وصفه ما لم يدع شأواً لمستبق فقال: ((كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به﴾ من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم))، رواه الترمذي في "جامعه" من حديث حارث الأعور عن علي رضي الله عنه، قال الزيلعي في "تخريج أحاديث الكشاف" (٣٩٤-١) وأخرجه ابن أبي شيبة

وإسحاق والدارمي والبزار من طريق الحارث ، وله شاهد عن معاذ بن جبل أخرجه الطبراني ، ورواه الحاكم من حديث ابن مسعود أيضاً مرفوعاً ، والكل لا يخلو عن ضعيف ، انتهى ملخصاً.

وقال ﷺ : ((القرآن ذو شجون ، وظهور وبطون ، لا تنقضي عجائبه ، ولا تبلغ غايته ، فمن أوغل فيه برفق نجا ، ومن أوغل فيه بعنف هوى ، أخبار وأمثال ، وحلال وحرام ، وناسخ ومنسوخ ، ومحكم ومتشابه ، وظهر وبطن ، فظهره التلاوة ، وبطنه التأويل ، فجالسوا به العلماء وجانبوا به السفهاء)) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق ضحاك عن ابن عباس ، حكاه صاحب "الإتقان" .

فهو تنزيل عزيز وقرآن مجيد يتجمجم دون نصاعته وبراعته وفصاحته وبلاغته مصاقعُ العالم وخطباءُ العرب والعجم ، حتى أخرس ناطقهم وغيض شقاشقهم ، فأضحوا لطلاوته وحلاوته حيارى ، وسرت فيهم حميا رحيقه فتراهم سكارى وما هم بسكارى ، وكان كما قال قائلهم :

و عينان قال الله كونا فكانتا

فعولان بالألباب ما يفعل الخمر

وأين أنت من قول الوليد بن المغيرة حين سمع منه ﷺ آيات من أوائل "حم السجدة" فقال : "والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمورق ، وإنه يعلو ولا يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته" اهـ ، وهو كتاب أحكمت آياته من لدن حكيم خبير ، يتكفكف دون حِكَمِه حكماءُ الشرق والغرب ، ويتتعتع من استنباط أحكامه وفقهه ومسائله فقهاء العراق والحجاز والخراسان والقرطبة ، ويتلجلج من إحصاء ما حواه من نظام تهذيب النفوس ونواميس تربية العالم فلاسفة العصر وعقلاء الزمان ، ولله در الشيخ المحدث

الحافظ تقي الدين السبكي - رحمه الله- فيما أنشد في ذيل جواب للشيخ صلاح الدين الصفدي رحمه الله :

لأسرار آيات الكتاب معان … تدق فلا تبدو لكل معان
وفيها لمرتاض لبيب عجائب … سنا برقها يعنو له القمران
إذا بارق منها لقلبي قد بدا … هممت قرير العين بالطيران
سروراً وإبهاجاً وصولاً على العلى … كأني على هام السماك سماني
وهاتيك منها قد أبحت كما ترى … فشكراً لمن أولى بديع بيان
وإن جناني في تموج أبحر … من العلم في قلبي تمدّ لساني
وكم من كناس في حماي مخدر … إلى أن أرى أهلا ذكي جنان
فيصطاد مني ما يطيق اقتناصه … وليس له بالشاردات يدان
مناي سليم الذهن ريض ارتوى … بكل علوم الخلق ذو لمعان
فذاك الذي يرجى لإيضاح مشكل … ويقصد للتحرير عند عيان
وكم لي في الآيات حسن تدبر … به الله ذو الفضل العظيم حباني
بجاه رسول الله قد نلت كل ما … أتى وسيأتي دائماً بأمان
فصلى عليه الله ما ذرّ شارق … وسلم ما دامت له الملوان

سردت هذه الأشعار كلها حيث لم يدعني حلاوتها إلا أن أتيت برمتها ، حكاها ابنه بهاء الدين السبكي في "عروس الأفراح".

ذكر بعض التفاسير الكبيرة الضخمة

فلما كان كلام الله تبارك وتعالىٰ من البلاغة في غاية ليس وراءها غاية ، ومن المعارف والعلوم والحقائق والأسرار بمنزلة قاصية كلّت دونها العرابُ والمهارى ، ومن الأحكام ونواميس النظام وتربية النفوس وتهذيب الأخلاق

وتزكية القلوب والأرواح في شأو بعيد انقطعت دونها مطامح الأنظار ومطارح الأفكار ، وما سواها من البدائع والروائع والخصائص والمزايا لا يحصى ، فأماثل الملة الإسلامية صرفوا أعمارهم المباركة وأنفاسهم الطاهرة في كشف أسراره من وجوه خرائده ، فأبرزوا ما في محاسنها من سبحات الأنوار ، وأفاضل الأمة المحمدية بذلوا جهودهم الفائزة ، فغاصوا في بحره المحيط ، فأخرجوا الدر المنثور ، والجوهر المنظوم ، وأتوا بنظم الدرر من الدر اللقيط .

فهذا الشيخ أبو عبدالله محمد بن عبد الرحمن البخاري الحنفي الملقب بالزاهد العلاء في طبقة شيوخ صاحب "الهداية" المتوفى ٥٤٦ هـ ألف تفسيرًا يز يد على ألف جزء ، حكاه الشيخ قاسم بن قطلو بغا الحنفي في "تاج التراجم" ، وهذا الشيخ أبو يوسف عبد السلام بن محمد القزو يني المتوفى ٤٧٣ هـ صنف تفسيراً في ثلاثمئة مجلد سماه : "حدائق ذات بهجة" ، وقيل : في خمسمئة مجلد ، حكاه صاحب " كشف الظنون" .

وهذا الإمام محمد بن جر ير الطبري المتوفى ٣١٠ هـ ألف تفسيراً للقرآن في ثلاثين ألف ورقة ، ثم اختصره في ثلاثة آلاف ورقة ، كما حكاه صاحب "الكشف" عن "الطبقات الكبرى" للشيخ تاج الدين السبكي ، وهو المطبوع اليوم بأيدينا في ثلاثين جزءًا ، فيكون التفسير الأول في ثلاثمئة مجلد مثل الأجزاء الثلاثين المطبوعة .

وهذا الشيخ الإمام القاضي أبو بكر بن العربي المتوفى ٤٦٨ هـ أنشأ تفسيراً في ثمانين ألف ورقة كما قاله في كتابه "القبس" ، و رآه بعض الفضلاء في خزانة [illegible] أبي عنان في ثمانين مجلدا ، حكاه صاحب "الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب" .

وهذا شيخهم الأكبر أعرف أهل المغرب الطائي الأندلسي المتوفى ٦٢٨هـ

صاحب "الفتوحات المكية" فسر القرآن في ستين سفراً بلغ فيه إلى سورة الكهف.

وهذا الشيخ جمال الدين أبو عبد الله الحنفي المقدسي المعروف بابن النقيب المتوفى ٦٩٨هـ ، صنف تفسيراً في خمسين مجلداً ونيف سماه "التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير" ، ذكره صاحب "كشف الظنون" ، وقال الكفوي : في ثمانين مجلدا ولم يسبق إليه ، وقال مجير الدين الحنبلي في "تاريخ القدس" : في تسعة وتسعين مجلداً ، جمع فيه خمسين مؤلفاً في التفاسير كما حكى الفاضل اللكنوي في "الفوائد البهية" .

وهذا الشيخ أبو القاسم الأصبهاني المتوفى ٥٣٥ هـ، له تفسير في ثلاثين مجلداً .

وهذا الشيخ شمس الدين أبو المظفر المتوفى ٦٥٤هـ ألف تفسيراً في ثلاثين مجلداً .

وهذا الشيخ مفضل بن سلمة الحنفي من علماء القرن الثالث، له تفسير في نيف وعشرين جزءا سماه "ضياء القلوب في معاني القرآن" ، ذكره ابن النديم.

وهذا أبو بكر محمد بن الحسن الأنصاري النقاش له، كتاب "التفسير الكبير" في اثني عشر ألف ورقة ، ذكره ابن النديم .

ويقول صاحب "ظهر الإسلام" في (ص-٢٠٥) : أبو بكر الأدفوي تلميذ أبي جعفر النحاس ، ألف كتاباً في علوم القرآن في مائة وعشرين مجلداً ، مات سنة ٣٨٨ هـ ، ويقول في (ص-٢٨٠) تفسير في مائة مجلد تستغرق عمر الكاتب وتستنفد حبر الناسخ ، حمل ابن سبكتكين العلماء على تأليفه .

ويقول الكوثريُّ في "مقالاته" كما أشرت إليه سابقاً ما لفظه :

وأرجو القارئ الكريم أن يسمح لي أن أذكر بعض مؤلفات علماء هذه الأمة في هذا الصدد مما يكون أنموذجاً لمساعيهم الجبارة في مضمار تدوين المؤلفات،

فها هو تفسير الإمام أبي الحسن الأشعري المسمى "المختزن" في سبعين مجلداً على ما يذكره المقريزي في "الخطط"، وتفسير القاضي عبد الجبار الهمذاني المسمى "المحيط" في مائة سفر، وتفسير أبي يوسف عبد السلام القزويني المسمى "حدائق ذات بهجة" أقل ما يقال فيه: إنه في ثلاثمئة مجلد، وكان مؤلفه وقفه وجعل مَقَرَّه مسجد الإمام أبي حنيفة ببغداد، ثم صار في عداد الكتب التي ضاعت في أثناء استيلاء المغول على دار الخلافة ببغداد إلا أني سمعت من أحد أدباء الهند[1] أنه رأى قطعة منه في أحد فهارس الخزانات.

وللحافظ ابن شاهين تفسير في ألف جزء حديثي، وللقاضي أبي بكر ابن العربي "أنوار الفجر" في التفسير في نحو ثمانين ألف ورقة، والمعروف أنه موجود في بلادنا إلا أني لم أظفر به مع طول بحثي عنه، ولابن النقيب المقدسي أحد مشايخ أبي حيان تفسير يقارب مائة مجلد يوجد بعض مجلدات منه في خزانة اصطنبول، ويوجد من تلك التفاسير بعض مجلدات في بعض الخزانات فيما أعلم.

بيان أضخم تفسير تام في علمنا

وأما أضخم تفسير تام يوجد اليوم - على ما نعلم - فهو تفسير "فتح المنان" المدعو بـ"التفسير الغلامي" المنسوب إلى العلامة قطب الدين الشيرازي وهو في أربعين مجلدا، فالمجلد الأول منه موجود بدار الكتب المصرية، وبه تظهر خطته في التفسير، وفي مكتبتي محمد أسعد وعلى باشا -حكيم أوغلي - في اصطنبول من مجلداته ما يتمُّ بها نسخة كاملة، وللعلامة محمد الزاهر البخاري نحو مئة مجلد في التفسير كما في "المنهل الصافي" ولعلماء هذه الأمة تفاسير لا تحصى سوى ما تقدم على اختلاف مسالكهم.

---

(١) يريد به الأستاذ اللغوي الشيخ عبد العزيز الميمني.

وهذا ما بلغ إليه علمي القاصر من التفاسير الكبيرة جداً ، وأما التفاسير في عشرة أجزاء فما فوقها بقليل أو ما دونها بقليل ، فأكثر من أن يستقصى ، فهكذا أعيان الأمة في القديم والحديث سعوا في إبراز علومه وأسراره بالسعي الحثيث ، بيد أن كل إناء يترشح بما فيه ، خاض كل منهم فيما شغف به فؤاده ، فالمحدث همه سرد روايات وطرق التحديث كابن جرير في تفسيره ، والسيوطي في "الدر المنثور" وغيرهما ، والفقيه دخل في غمار الاستنباط واستخراج الأحكام كالقرطبي وغيره ، والنحوي غاص في وجوه إعرابه وطرقٓ تراكيبه وتركيب أساليبه كأبي حيان في "بحره" و "نهره" ، والبياني أولع بإظهار إعجازه في إطنابه وإيجازه، وإبداء المحاسن في مقاطعه ومطالعه ، والتنبيه ببدائعه وروائعه ، كالزمخشري في "كشافه" وأبي سعود في "إرشاده" ، والمتكلم جال في كلامه كالفخر الرازي سلكه في "مفاتيحه" بيد أنه أودع فيه جواهر غالية من مهمات شتى ، والمنطقي همه في ترتيب الأقيسة والبحث عن الرسوم والحدود كما فعله ابن سينا في تفسير سورة "الإخلاص" ، والفيلسوف العصري مكابدته في إبراز ماحوته الآيات الربانية من الأسرار الكونية والبدائع العنصرية والغرائب الطبيعية كالشيخ جوهري الطنطاوى حشا تفسيره بغرائب الطبيعيات ، وعجائب الفلكيات والعنصريات ، حتى يحس بادي الرأي كأن القرآن نزل لذلك .

فكلٌّ نَفَض جرابه و وطابه وفرّغ كنانته وجعابه ، وكان هذا قدراً مقدوراً من الله العلي الحكيم ، ليستبين على رؤوس الأشهاد أنه كلام لا تنقضي عجائبه ، ولينجلي كالذكاء في كبد السماء ما أخبر به الصادق المصدوق الأمين ﷺ ، وهذه أطراف بعضها أهم من بعض ، و يرتجى أن تكون التفاسير الكبيرة التي ذكرت قبلها جامعة لسائر الأطراف المهمة ، مستوعبةً للمزايا استيعاباً على ما انتهت إليه أبصارهم و بصائرهم ، نعم ولمفتي البغداد السيد المحقق الحنفي الآلوسي منة على

رقاب العلماء بتفسيره "روح المعاني" فإنه أجمع تفسير في التفاسير المتداولة بأيدي أهل العلم اليوم روايةً ودرايةً فقهاً وحديثاً ، فصاحةً و بلاغةً ، إعراباً ولغةً ، كلاماً وتصوفاً ، متناسق المباني ، متلائم المعاني ، فكله درر وغرر ، جعله الله له خير ذخر يوم يقوم الناس لرب العالمين .

وحدثني صديقي الفاضل الذكي مولانا محمد لطف الله الفشاوري عن إمام العصر شيخنا -رحمه الله - أنه قال : "قد بلغت تفاسير القرآن المؤلفة إلى مائتي ألف" اه ، نعم ! إذا كان الكتاب كتاب الله سبحانه فحريٌ به أن يكون هذا شأنه ، ثم إذا كانت هذه علوم علماء الأمة بالقر آن ،فما ظنك بعلوم أجلاء الصحابة بالقرآن ، و يكشف عن هذا ما روي أنه أقام ابن عمر على حفظ القرآن ثماني سنين ، رواه مالك في "المؤطأ" وما روي عن مجاهد أنه يقول : عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة ، حكاه السيوطي وغيره ، ثم ما ظنك بعلوم استأثر الله بها من آتاه علم الأولين والآخرين ، أعلم أهل الأرض من أتى ومن يأتي ، ومن أنزل به هذا الكتاب المستبين ، وهيهات أن تحوي صدور الأمة ما أودع الله صدر نبي الأمة، خاتم النبيين ، وسيد المرسلين صلى الله عليه وعليهم أجمعين.

ثم ارق واعرج من ذلك إلى مُنزِل هذا الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، فما ظنك بعلومه التي استأثر الله بها نفسه في غيبه المكنون ، وسره المخزون ، جلّ ذكره ، وعظم برهانه ، هيهات هيهات أن تكون نسبة للمخلوق الجهول مع الخالق العليم الحكيم ، وقد أوضحه تمثيل خضر عليه السلام وهو تمثيل لاحقيقة ، فإن القطرة والبحر متناهيان محدودان ، وعلم الله سبحانه و تعالىٰ أجلّ من أن يحدّ بالطول والعرض ، وسع كرسيه السماوات والأرض ، وكيف وقد قال الله سبحانه و تعالىٰ :

﴿قل لوكان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾ [الكهف]

وقال سبحانه وتعالىٰ:

﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾ [لقمان]

فليس كل من فسر القرآن ولو في مئين جزء بل في آلاف جزء أنه أحاط بجمّيع ما فيه علماً، قال ابن أبي الدنيا: "علوم القرآن وما يستنبطّ منه بحر لا ساحل له" اهـ، حكاه صاحب "الإتقان"، نعم! أحاظ قسمة وجدود، وكل يحتطب في حبله الممدود:

وما كل من قال القريض بشاعر
ولا كل من عانى الهوى بمتيم

وقال آخر:

وما كل مخضوب البنان بثينة
ولا كل مصقول الحديد يماني

فالحق والحق يقال: إنه لا يقوم الخلق الضئيل بإيفاء حق كلام الخالق الجليل، فخطاهم تقاصرت، وأطماعهم تقاعست، وهممهم تقاعدت، فبقيت علوم من علومه في معادنه، ولا تزال تبقي إلا ما انعقدت المشية الأزلية بإنزاله من صوب مزنه المدرار على قلوب عبيده، ولا تزال غواديه تسقي من علومه الأمة إلى ما شاء الله، وعسى أن تكون بقاع مجدبة من أطراف علومه يسقيها إذا اشتاقوا إلى فيضانه، وربما يدور بالبال أن الله أظهر من مكنون علوم القرآن في كل عصر ما كان أهل العصر في فقر إليه وفاقة، وحنت إليه النفوس بعد ما كانت مشتاقة،

وهذا أمر إن أقنعت رأسك لمشاهدة ما فسر القرآن في كل قرن من أدوار القرون المتطاولة من لدن عهد الصحابة إلى عهدنا هذا ، ولحظت إليه لحظاً إجمالياً سيكشف لك عن رأيي القاصر ، وعسى أن يكون له وقع في بعض القلوب ، ولولا مخافة البعد عن غرضي لأعطيت القول حقه في تنسيقه وتحقيقه ، غير أن لأولى الألباب مقنعاً في الإشارات وكفاية ، وعسى أن تسمح المعادن الإسلامية وغيرها بإبراز أكثر تلك الجواهر القيمة الغالية إلى العالم ، كما تشاهد الآثار في هذه الأيام ، فكثير من دفائن الإسلام وخزائن علماء الأمة التي ضنت بها الأيام ، وظن أنه غالتها يد الحوادث الطارقة أغنت مكاتب القوم بعد ما كانت تحنّ إليه مشتاقة مفتقرة ، وهكذا يتمّ الله سبحانه وتعالى حجته في كل قرن على العالمين .

بيان ما هو الأعنى من تفسير القرآن

ثم أقول : كل تلك المساعي المباركة للأمة مما يحرى أن يقدر قدرها في حنايا الضلوع وطوايا القلوب ، فإنهم بذلوا ما عندهم في تجلية علوم القرآن والذب عن بيضته وحوزته حسب مقدرتهم ، فلهم جزيل المنة على رقاب الأمة ممن جاء بعدهم ، بيد أن الأعنى والأهم هو تفسير القرآن في استبصار من حياة نبينا ﷺ وهديه وهداه ، قولاً وفعلاً ، وإشارةً ودلالةً ، فإن حياته الطيبة وسيرته المباركة الزكية شرح بديع لكتاب الله العزيز مما يشاهد بالأبصار ، وتكفي في إبداء الغرض المقصود من كثير من معاناة الأفكار، وقد أوضحه قول صديقة الأمة بنت الصديق سيدتناعائشة -رضي الله عنها وعنه - حيث قالت : كان خُلقه القرآن .

وكان يقول شيخنا إمام العصر - رحمه الله - : إذا تأمل المرأ بالبصيرة النافذة في حديث رسول الله ﷺ كشف له في كثير من الأحاديث كأن القرآن عين ثرثارة تنبع منها هذه الأحاديث حتى ترى في كثير منها إشارات لطيفة إلى تعبير القرآن ، يفيد لذلك "الدر المنثور في التفسير بالمأثور" للشيخ جلال الدين السيوطي المتوفى ٩١١ھ ما لايفيد غيره .

يقول الراقم : و يؤيد ذلك ما حكاه السيوطي في "الإتقان" بقوله : وقد قال الشافعي -رحمه الله- : ما حكم به رسول الله ﷺ فهو ما فهمه من القرآن،

قال تعالى : ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ اهـ .

ذكر ما ينبغي أن يلاحظ عند تفسير القرآن الكريم

وكان يقول شيخنا رحمه الله : يكون مراد القرآن معلقاً ما لم يرجع إلى الحديث ولم يجعل شرحاً له ، وهكذا يكون غرض الحديث معلقاً ما لم يرجع إلى الفقه ولم يدرك به حقيقة الأمر اهـ . وقال الحافظ أبو عمرو ابن عبد البر القرطبي المتوفى ٤٦٣ هـ في كتاب "التقصي" فيما حكى عنه الشيخ العارف عبد الرحمن الثعالبي الجزائري المتوفى ٨٧٥ هـ من تلامذة الحافظ ولي الدين العراقي وابن مرزوق في "الجواهر الحسان في تفسير القرآن" ما نصه : وأولى الأمور بمن نصح نفسه وألهم رشده معرفة السنن التي هي البيان لمجمل القرآن ، بها يوصل إلى مراد الله تعالىٰ من عباده فيما تفيدهم من شرائع دينه الذي به الابتلاء وعليه الجزاء في دار الخلود ،والبقاء التي يسعى لها الألباء والعقلاء والعلماء والحكماء ، فمن منّ الله عليه بحفظ السنن والقرآن فقد جعل بيده لواء الإيمان ، فإن فَقُه وفهم واستعمل ما علم دعي في ملكوت السماوات عظيماً ، ونال فضلاً جسيماً اهـ .

ثم الأهم تفسيره في استنارة من أنوار حياة الصحابة - رضي الله عنهم - فإنهم نجوم الأمة وهداة الملة ، وإنهم أول المخاطبين به وأول من أمروا بمعروفه ونهوا عن منكره من الأمة ، وأول من سألوا عن متشابهه ومشكله وأول من صدعوا بمبهمه ومجمله ، وأول من كشفوا عن غريبه وغامضه ، وأول من علموا شأن نزوله ، واطلعوا على أغراض تنزيله ، وإنهم كما وصفهم عبد الله ابن مسعود - رضي الله تعالىٰ عنه - بقوله : أولئك أصحاب محمد ﷺ أفضل هذه الأمة ، وأبرها قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، اختارهم الله لصحبة نبيه ولإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوا على أثرهم ، وتمسكوا بما استطعتم من

أخلاقهم وسيرتهم ، فإنهم على الهدى المستقيم اهـ ، وكما قال فيهم الإمام عمر بن عبد العزيز : فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم فإنهم على علم وقفوا ، و ببصر نافذ قد كفوا، وهم على كشف الأمور كانوا أقوى ،و بفضل ما كانوا فيه أولى ، فإن كان الهدى ما أنتم عليه سبقتم إليه ، ولئن قلتم : إنما أحدث بعدهم ما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم ورغب بنفسه عنهم فإنهم هم السابقون فقد تكلموا فيه بما يكفي ، ووصفوا منه ما يشفي ، فما دونهم من مقصر ، وما فوقهم من محسر ، وقد قصر أقوام دونهم فجفوا ، وطمح عنهم أقوام فغلوا ، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم اهـ ، رواه أبو داؤد في "سننه" من باب لزوم السنة .

ذكر السابقون في هذه الحلبة

والسابقون في هذه الحلبة الخلفاء الراشدون ولا سيما علي رضي الله عنه ، ثم ابن عباس ترجمان القرآن وحبر الأمة ، وابن مسعود ذلك الكنيف الذي أوثر به أهل القادسية[١] ، قال صاحب "الجواهر الحسان" : فأما صدر المفسرين والمؤ يد فيهم فعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - و يتلوه عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - وهو تجرد للأمر وكمله وتتبعه العلماء عليه كمجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما ، والمحفوظ عنه في ذلك أكثر من المحفوظ عن علي بن أبي طالب ، وقال ابن عباس : ما أفدت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب، وكان علي بن أبي طالب يثني على تفسير ابن عباس ويحض على الأخذ عنه ، وكان ابن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه - يقول : نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس ، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ : ((اللّٰهم فقهه في الدين وعلمه التأو يل)) وحسبك بهذه

---

(١) إشارة إلى ما قاله عمر الفاروق في مدحه لما ذكر عنده فقال : كنيف ملئ علما ، آثرت به أهل القادسية ، كما في "طبقات ابن سعد" (١٥-٢) طبع ليدن.

الدعوة ، و يتلوه عبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب ، وز يد بن ثابت ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وكل ما أخذ من الصحابة فحسن متقدم.

بيان المبرزين في التابعين

ومن المبرز ين في التابعين الحسن بن أبي الحسن ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير، وعلقمة ، وقد قرأ مجاهد على ابن عباس قراءة تفهم ووقوف عند كل آية ، و يتلوه عكرمة ، والضحاك بن مزاحم وإن كان لم يلق ابن عباس وإنما أخذ عن ابن جبير ، وأما السدي فكان عامر الشعبي يطعن عليه وعلى أبي صالح ، لأنه كان يراهما مقصرين في النظر .

ثم حمل تفسير كتاب الله عزوجل عدول كل خلف ، وألف الناس فيه كعبد الرزاق ، والمفضل ، وعلي بن أبي طلحة ، والبخاري ، ثم إن محمد بن جر ير الطبري جمع على الناس أشتات التفسير وقرب البعيد وشفى في الإسناد ، ومن المبرز ين في المتأخر ين أبو إسحاق الزجاج ، وأبو علي الفارسي[1] فإن كلامهما منحول ، وأما أبو بكر النقاش وأبو جعفر النحاس رحمهما الله ، فكثيراً ما استدرك الناس عليهما ، وعلى سننهما مكي بن أبي طالب ، وأبو العباس المهدوي متقن التأليف ، وكلهم مجتهدون مأجورون رحمهم الله ونضر وجوههم اه ، ومن شاء المز يد في هذا الموضوع فليرجع إلى ما ذكره ابن النديم في كتاب "الفهرست" من الأوائل، ولا سيما من (ص-٥٠ إلى ٥٩) المطبوع بمصر ، وما ذكره صاحب "كشف الظنون" من علم التفسير ، وما ذكره الشيخ جلال الدين السيوطي في "إتقانه" من النوع الثمانين.

و بالجملة : الصحابة نخبة الأمة امتازوا بالفهم التام والعلم الصحيح

---

(١) حنفي كما في "تاج التراجم" توفي قبل السبعين وثلاثمئة كما في "فهرست ابن النديم" .

والعمل الصالح ، فهم الراسخون في العلم ، وهم السابقون في الفهم ، وهم المفردون في العمل ، وقال ﷺ : ((سبق المفردون)) ، وحكى السيوطي في النوع الثامن والسبعين من "الإتقان" عن الحافظ ابن تيمية أنه يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه . فقوله تعالىٰ : ﴿ لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ يتناول هذا وهذا ، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرءون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً ، ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة ، وقال أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ -أي عظم- في أعيننا ، رواه أحمد في "مسنده" اهـ . وقال العارف ابن أبي جمرة المحدث عن علي رضي الله عنه أنه قال : لو شئت أن أوقر سبعين بعيراً من تفسير أم القرآن لفعلت اهـ . ثم بيّن ما يقرب به إلى الأفهام ، حكاه السيوطي .

قال الراقم : وقوله تعالىٰ :

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته و يزكيهم و يعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ [الجمعة]

وقوله تعالىٰ :

﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته و يزكيهم و يعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ [آل عمران]

وقوله تعالىٰ في حكاية دعوة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام :

﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك و يعلمهم الكتاب والحكمة و يزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ [البقرة]

أوضح حجة على ما قاله ابن تيمية وغيره ، كيف لا وإن القرآن العظيم أنزله الله للتدبر في آياته حيث قال تعالىٰ : ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبّروا آياته﴾ ، وذمَّ قوماً بعدم التدبر في قوله تعالىٰ : ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ فالصحابة أولى الأمة بالتدبر فيه والعمل به ، وإذا لم يكن الصحابة بهذه المثابة فمن يكون بعدهم ؟! ، وهم كما قال قائلهم :

لهم شمس النهار إذا استقلت ... و نور ما يغيبه العماء
هم حلوا من الشرف المعلى ... ومن حسب العشيرة حيث شاءوا
من البيض الوجوه نجوم هدى ... لو أنك تستضيئ بهم أضاءوا
فلو أن السماء دنت لمجد ... ومكرمة دنت لهم السماء

ومن زيادتي ارتجالاً :

بحار معارف وعيون علم ... بيانهم من الجهل الشفاء

وهذا موضوع واسع ليس هذا موضع إحصائه ، من شاء فليراجع إلى "الإتقان" وغيره من المظان ، نعم كثيراً مما بينته وحاولت بيانه كان يخطر ببالي الفاتر وفكري القاصر ، ثم رأيته في كلام الأكابر الذين لهم عند الله خير ذخائر ، وقد قيل : قد يتوارد الخاطر على الخاطر كما يقع الحافر على الحافر ، و في كثير من المواضع اتفق تعبيري مع تعبيرهم وتصويري مع تصويرهم إلا في يسير من نهج الإنشاء ومسلك التحبير والتقديم والتأخير ، فله الحمد حمداً كثيراً ، وما هو إلا من بركات روحانيتهم ومن حسن الظن بهم و إنهم سابقوا غايات وأصحاب آيات ، نفعني الله تعالىٰ بعلومهم ومعارفهم ، وحشرني من فضله في زمرتهم.

وإنما أطلت إطالة في هذا لما رأيت أن كثيراً ممن يحاولون التفسير في هذه الأيام يحسبون أنهم في غنية من الحديث والآثار ، و يتمسكون بمحض اللغة والتار يخ ، و يغمضون عن السنة وإجماع الأمة ؛ فيقولون بهما فيما وافق هواهم ، و يذرون حيثما خالف رأيهم، فيقولون ما يشاءون و يتبعون الهوى ، وهذا أول باب للإلحاد والزندقة كأبي الكلام أحمد الدهلوي في "ترجمان القرآن" جعل التار يخ المضطرب البنيان ورأيه الضئيل مداراً لفهم التنزيل وحل نظمه الجليل ، وسيأتي الكلام على تفسيره فانتظره ، وكثير من أمثاله من أهل العصر أصبح هذا ديدنهم ، والموفق هو الله الهادي إلى الحق .

شروط المفسّر وبيان التفسير بالرأي

و يناسب الآن أن يستوفى أطراف ما ذكرته من شروط المفسر والتفسير، وبيان التفسير بالرأي ، وقد أطال القوم في ذلك ، ولهم الفضل والمنة علينا ، وأريد بتوفيقه تعالىٰ أن أذكر مما قالوا بنخبه وزبده من غرر النقول ودرر الأقو ما تكون واسطة قلادتها ودرة نظامها ، وعسى أن يجلو العيون و يشفي النفوس، والله ولي التوفيق والإعانة .

قال السيوطي : اختلف الناس في تفسير القرآن هل يجوز لكل أحد الخوض فيه ؟ فقال قوم : لا يجوز لأحد أن يتعاطى تفسير شيئ من القرآن وإن كان عالماً أديباً متسعاً في معرفة الأدلة والفقه والنحو والأخبار والآثار وليس له إلا أن ينتهي إلى ما روي عن النبي ﷺ .

و منهم من قال : يجوز تفسيره لمن كان جامعاً للعلوم التي يحتاج إليها المفسر و هي ستة عشر علماً :

١ -اللغة ٢ - والنحو ٣ - والتصريف ٤ - والاشتقاق

٥ - والمعاني ٦ - والبيان ٧ - والبديع ٨ - والقراءة

٩ - وأصول الدين ١٠ - وأصول الفقه ١١ - والقصص

١٢ - وأسباب النزول ١٣ - والناسخ والمنسوخ ١٤ - والفقه

١٥ - والأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم

١٦ - وعلم الموهبة ، وهو علم يورثه الله لمن عمل بما علم .

وإليه الإشارة بحديث : ((من عمل بما علم يورثه الله علم ما لم يعلم)) انتهى ملخصاً وملتقطاً ، و بيَّن السيوطي وجوه الاحتياج إلى هذه العلوم في تفسير القرآن ، وهي بادية بادي الرأي فكفينا ذكرها ، وقال نقلاً عن ابن أبي الدنيا : "فهذه العلوم التي هي كالآلة للمفسِّر لا يكون مفسِّرا إلا بتحصيلها ، فمن فسَّر بدونها كان مفسِّراً بالرأي المنهي عنه ، وإذا فسر مع حصولها لم يكن مفسِّراً بالرأي المنهي عنه" ، اهـ .

قال الراقم : التطبيق بين القولين و إرجاع الأول إلى الثاني غير عسير ، فإن ما ثبت وصح عن النبي ﷺ ولم يعارضه شيئ مثله فالمصير إليه متعين عند الكل ، وإذا لم يصح عنه ﷺ شيئ وكان أمراً مما يفتقر إلى الكشف عنه ، ولم يكن من المتشابه الذي يؤمن به إجمالاً ، و يفوض حقيقته وتفصيله إلى الله ، ولم يكن أمراً غامضاً لا ينحلُّ بمكابدة الأفكار ، وصار كالمتشابهات بل يبلغ إلى معناه كل أحد من أهل العلم ، و يتعاطى فهمه أهل اللغة فيسوغ القول فيه لكل من كان متضلعًا من تلك العلوم التي أحصوها ، ولا بد و كيف لا؟! والكتاب الذي أنزل ذكرًا للناس وشفاء لما في الصدور ، كيف يعلَّق بين السماء والأرض؟! وقد قال تعالىٰ : ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ ولو كان الأمر كما يتبادر من القول الأول لم يعلم شيئ من القرآن بالاستنباط ، ولم يفهم قدر كثير من كتاب الله ، فالأحسن أن يجعل المحط واحداً في القولين ، فالأمر إذن هين لين و يرتفع به من البين .

و يؤ يّدني - والله أعلم - ما قال الزركشي : إن القرآن قسمان :

١ - قسم ورد تفسيره بالنقل. ٢ - وقسم لم يرد .

والأول : إما أن يرد عن النبي ﷺ ، أو الصحابة ، أو رؤوس التابعين ، فالأول يبحث فيه عن صحة السند .

والثاني : ينظر في تفسير الصحابي ، فإن فسَّر من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك في اعتماده ، أو بما شاهده من الأسباب والقرائن فلا شك فيه ، وحينئذ إن تعارضت أقوال جماعة من الصحابة فإن أمكن الجمع فذاك ، وإن تعذر قُدِّم ابن عباس لأن النبي ﷺ بشّره بذلك حيث قال : ((اللهم علِّمه التأويل)) وقد رجَّح الشافعيّ قول زيد في الفرائض لحديث : ((أفرضكم زيد)) وأما ما ورد عن التابعين فحيث جاز الاعتماد فيما سبق فكذلك ، وإلا وجب الاجتهاد ، وأما ما لم يرد فيه نقل فهو قليل ، وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق ، وهذا يعتني به الراغب كثيراً في كتاب "المفردات" اهـ ، حكاه السيوطي ، ويؤيّدني ما نقل السيوطي في موضع آخر من "الإتقان" عن "المدخل" بقوله : فما ورد بيانه من صاحب الشرع ففيه كفاية عن فكرة ، وما لم يرد عنه بيانه ففيه حينئذ فكرة أهل العلم بعده ليستدلوا بما ورد بيانه على مالم يرد اهـ.

التفسير بالرأي

واعلم أن للعلماء - رحمهم الله - كلمات مختلفة في بيان التفسير بالرأي الذي قصده النبي ﷺ في قوله : ((من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ)) أخرجه النسائي وأبو داؤد والترمذي ، وفي رواية : "من قال" إلخ وفي أخرى : ((من فسر القرآن)) والذي أراده بقوله : ((من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار)) أخرجه أبوداؤد ، فالحديث الأول تكلموا في صحته ، وبعد ما صح فقال البيهقى : أراد - والله أعلم - الرأي الذي يغلب من غير دليل قام عليه، وأما الذي يشدُّه برهان فالقول به جائز ، ومعنى قوله ﷺ : ((فأصاب فقد أخطأ)) على ما في "المدخل" وحكاه السيوطي : أي فقد أخطأ الطريق ، فسبيله أن يرجع في تفسير ألفاظه إلى أهل اللغة ، وفي معرفة ناسخه ومنسوخه وسبب نزوله وما يحتاج إلى بيانه إلى أخبار الصحابة الذين شاهدوا تنزيله ، وأدوا إلينا من السنن ما يكون بياناً لكتاب الله اهـ ، أو يكون المراد به من قال فيه برأي من غير معرفة منه بأصول العلم وفروعه ، فيكون موافقته للصواب إن وافقه من حيث لا يعرفه غير محمودة .اهـ.

و أما الحديث الثاني فمما قاله الأنباري في أحد معنييه : من قال في القرآن قولاً يعلم أن الحق غيره فليتبوأ مقعده من النار اهـ . وقال ابن النقيب الحنفي : جملة ما تحصل في معنى حديث التفسير بالرأي خمسة أقوال:

أحدها : التفسير من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير .

الثاني : تفسير المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله .

الثالث : التفسير المقرر للمذهب الفاسد بأن يجعل المذهب أصلاً والتفسير تابعاً فيرد إليه بأي طريق أمكن وإن كان ضعيفاً.

والرابع : التفسير بأن مراد الله كذا على القطع من غير دليل .

الخامس : التفسير بالاستحسان والهوى اهـ .

انتقيت هذه الأقوال والتقطتها من " الإتقان".

قال الراقم : والقول الفصل عندي ما أفاده الخازن في "تفسيره" وبلغني أن شيخنا إمام العصر - رحمه الله - استحسنه ولفظه : قال العلماء : والنهي عن القول في القرآن بالرأي إنما ورد في حق من يتأوّل القرآن على مراد نفسه وما هو تابع لهواه ، وهذا لا يخلو إما أن يكون عن علم أولا ، فإن كان عن علم كمن يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أن المراد من الآية غير ذلك ، لكن غرضه أن يلبس على خصمه بما يقوي حجته على بدعته كما يستعمله الباطنية والخوارج وغيرهم من أهل البدع في المقاصد الفاسدة ليغروا بذلك الناس .

و إن كان القول في القرآن بغير علم لكن عن جهل وذلك بأن تكون الآية محتملة لوجوه فيفسرها بغير ما تحتمله من المعاني والوجوه ، فهذان القسمان مذمومان ، وكلاهما داخل في النهي والوعيد الوارد في ذلك ، فأما التأويل وهو صرف الآية على طريق الاستنباط إلى معنى يليق بها محتمل لما قبلها وما بعدها وغير مخالف للكتاب والسنة ، فقد رخص فيه أهل العلم ، فإن الصحابة - رضي الله عنهم- قد فسروا القرآن واختلفوا في تفسيره على وجوه ، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبي ﷺ ، ولكن على قدر ما فهموا من القرآن تكلموا في معانيه ، وقد

دعا النبي ﷺ لابن عباس فقال : ((اللهم فقّهه في الدين وعلّمه التاو يل)) ، فكان أكثر ما نقل عنه التفسير اهـ . "تفسير الخازن" من المقدمة .

وقال شيخنا رحمه الله في أماليه على "صحيح البخاري" (١٥٠-٤): إن التفسير إذا لم يوجب تغييراً لمسألة أو تبديلاً في عقيدة السلف فليس تفسيراً بالرأي، فإذا أوجب تغييراً لمسألة متواترة ، أوتبديلاً لعقيدة مجمع عليها ، فذلك هو التفسير بالرأي ، وهذا الذي يستوجب صاحبه النار ، ولا تتحصل على ما قلنا إلا بعد الاطلاع على عادات أصحاب التفسير ، وحينئذ لا قلق فيما فسره المفسرون من أذهانهم الثاقبة ، وأفكارهم الصحيحة ، ومن يطالع كتب التفسير يجدها مشحونةً بالتفسير بالرأي ، ومن حجر على العلماء أن يبرزوا معاني الكتاب بعد الإمعان في السياق والسباق ، والنظر إلى حقائق الألفاظ ومراعاة عقائد السلف ، بل ذلك حظهم من الكتاب فإنهم هم الذين ينظرون في عجائبه و يكشفون الأستار عن وجوه دقائقه ، و يرفعون الحجب عن خبيئات حقائقه ، فهذا النوع من التفسير بالرأي حظ أولي العلم ونصيب العلماء المستنبطين ، أما من تكلم فيه بدون صحة الأدوات ، لا عنده علم من كلام السلف والخلف ، و لا له ذوق بالعربية ، وكان من أجلاف الناس لم يحمله على تفسير كتاب الله غير الوقاحة وقلة العلم ، عليه الأسف كل الأسف ، وذاك الذي يستحق النار .

وقد أحسن الثعالبي الجزائري في "الجواهر الحسان" (١٢-١) في شرح الحديث الأول حيث قال : ومعنى هذا أن يسأل الرجل عن معنى في كتاب الله فيتسور عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء أو اقتضته قوانين العلوم كالنحو والأصول ، وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغو يون لغته والنحاة نحوه والفقهاء معانيه و يقول كل واحد باجتهاده المبني على قوانين علم ونظر، فإن هذا

القائل على هذه الصفة ليس قائلاً بمجرد رأيه ، وكان جلة من السلف كسعيد بن المسيب وعامر الشعبي وغيرهما يعظمون تفسير القرآن و يتوقفون عنه تورعاً واحتياطاً لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم ، وكان جلة من السلف كثير عددهم وهم يفسرونه وهم أبقوا على المسلمين في ذلك ، ورضى الله عنهم أجمعين اه ، وفي هذه الأقوال مقنع وكفاية للبصير ، والله الموفق.

تنبيه مهم في أقوال أهل التصوف في تفسير القرآن
والفرق بين تأويلات الباطنية الملاحدة وتأويلات الصوفية

ويحرى أن يذيَّل ما ذكرته بتنبيه مهم في حق الزائغين الذين يتمسكون بأقوال بعض الصوفية ، ويمرقون بها من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، يحرفون آيات الله من غير علم و برهان ، ويحرّفون الكلم من بعد مواضعه من غير سلطان ، فليعلم أنه قال النسفي في "عقائده" النصوص على ظاهرها ، والعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد، قال التفتازاني في "شرحه" سميت الملاحدة باطنية لادعائهم أن النصوص ليست على ظاهرها بل لها معان باطنية لا يعرفها إلا المعلم وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية ، قال : وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ومع ذلك فيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك يمكن التطبيق بينها و بين الظواهر المرادة فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان اه .

قال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في كتابه "لطائف المنن" : اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله ولكلام رسوله بالمعاني الغريبة ليس إحالة للظاهر عن ظاهره ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له ودلت عليه في عرف اللسان ، وثَم أفهام بواطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه ، وقد جاء في

الحديث : ((لكل آية ظهر و بطن)) فلا يصدنك عن تلقي هذه المعاني منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة : هذا إحالة لكلام الله ولكلام رسوله ، فليس ذلك بإحالة وإنما يكون إحالة لوقالوا : لا معنى للآية إلا هذا وهم لم يقولوا ذلك بل يُـقِرّون الظواهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها و يفهمون عن الله تعالىٰ ما أفهمهم اه ، حكاه صاحب "الإتقان" .

قال الراقم : والأخبار المروية في ذلك كثيراً ما تؤزر ذلك المعنى ، وقوله ﷺ : ((لا تنقضي عجائبه ، ولا تبلغ غايته)) وقوله ﷺ : ((فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم)) وقوله ﷺ : ((إن القرآن ذو شجون وفنون ، وظهور وبطون)) وغيرها من الأخبار المرفوعة والآثار الموقوفة كل ذلك مما يؤيده تأييداً ، وحديث علي - رضي الله عنه - : ((أو فهم أعطيه رجل مسلم)) رواه البخاري في كتاب العلم ، أوضح حجة في هذا الباب ، وقد مرَّ قول الشافعي من قبل ، وأثر ابن عمر ومجاهد قد أسلفته فتذكره ، ولو كان علوم القرآن ومقاصده منحصرة على ما دل عليه منطوقه ، ولم تكن هناك دقائق ولطائف من أرباب الحقائق و باب الإشارات والمعارف ما يدل عليه مفهوم القرآن و يشير إليه في عرض من أطراف بلاغته لما كان مزية لعالم على عالم ولمتقدم على متأخر ولا لبعض المتأخرين عل بعض المتقدمين ، وما ذا يكون معنى قول ابن مسعود في حق الصحابة : "وأعمقها علما"، فتثبت هداك الله ! فإن الأمر بيِّنٌ والفرق واضح ، ثم مع ذكر أهل الحق من أرباب الحقائق لطائف القرآن وتأويلاته التي تضمنت بواطن آياته لم يؤثر عن أحد منهم تركه العمل والاعتقاد بظواهرها ، فكيف يلتبس الأمر وهو أبين من صديع الفجر، فأرباب الحقائق هم الراسخون في العلم ، الصادقون في العمل ، وأما الباطنية المنكرون عن الشرائع ، الصارفون عن الظواهر ، ثم الزائغون في العلم ، والكاذبون في العمل ، فأولٰئك لهم شأن ، وهؤلاء لهم شأن ، وتعرف كلا منهم

بسيماهم ،وقد قال تعالىٰ في حق أمثال الباطنية : ﴿وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾ فأين ابتغاء الفطنة من ابتغاء الفتنة ؟ وأين ابتغاء الحق من ابتغاء الباطل ؟ ﴿أفمن يمشي مكبّاً على وجهه أهدى أم من يمشي سويا على صراط مستقيم﴾ :

وليس يصح في الأفهام شيئ إذا احتاج النهار إلى دليل

وليراجع للإلمام بأطراف الكلام والبحث إلى "الإتحاف شرح الإحياء" من الجزء الرابع ، هذا .

والله الهادي إلى الحق ، وصلى الله تعالى على سيدنا ومولانا خير خلقه محمد وآله وصحبه وتبعه أجمعين

فائدة في التفاسير المفيدة

و من الملائم في خاتمة هذا الموضوع من المقدمة أن يذكر أسماء التفاسير التي يُعوَّل عليها و يكاد يستغنى بمطالعتها عن غيرها إيقاظاً وتبصرة لإخواني طلبة العلم والحق ، وليعلم أن لكل تفسير مزية لا يساهمه فيها تفسير آخر ، وقلما يجبر تفسير ثلمة تكون بفقد الآخر ، وكيف تنفع الشعفة في الوادى الرغب؟! وأين برض من عد؟! وأنى الثمد من البحر الزاخر؟! وأنى رذاذ من الوابل الهامر؟! حيث امتاز كل منها بخصائص لا تكاد توجد في الآخر، فلا يُغني كتاب عن كتاب في علم واحد وإن تكفل المتأخر لأبحاث المتقدم ، بل لو اختصر أحد كتابا قلما يكون أن يستغنى به عن أصل الكتاب ، وهذا أمر شهدت به عندنا التجربة القاطعة ، ونطق به الذوق وقام به البرهان إلا ما شاء الله ، كيف وإن اختلاف الآراء أبين من فلق الصديع ، وتباين النزعات أجلى من النهار ، وحاجة كل امرئ غير حاجة الآخر ، فقلَّما تتحد جهات الحاجات وقلَّما تتفق الآراء والنزعات على أمر سواءً بسواءٍ، فكم من شيئ يفتقر إليه أحد و يستغني عنه آخر، ورب كلمة يعتني بها عالم دون آخر ، فلهذا يلزم كل من يعتني بعلوم القرآن ويحاول فيها التبصر والحذاقة الكاملة أن يطالع كل ما تسنى له وتيسر من التفاسير المؤلفة ، ولا بد ، فإن الموضوع خير كله، ولا سيما ما أفاده الأعيان المحققون والأثبات الراسخون وإن كان مما يتعلق بسورة أو سورتين بل آية أو آيتين ، فيفتقد لها من

تضاعيف مؤلفاتهم في علوم وفنون ما عدا التفسير، و ينشدها كضالته الثمينة القدر من سائر المظان المختلفة ، فكم من مشكلات القرآن يظفر المرؤ بحلها في غير محلها، و يفوز طالبها بأوفر حظ من حيث لا يرتجى .

وأمثال هذه الدرر المبعثرة واللآلي المنثورة توجد في كثير من كتب المحققين كالإمام حجة الإسلام الغزالي المتوفى ٥٠٥ هـ ، وكا لحافظ ابن القيم المتوفى ٧٥١ هـ، وهو فيهم سباق غايات قلَّما يعرو كتاب له من تفسير آية ، وكشيخه البحر الزاخر الحافظ ابن تيمية الحراني المتوفى ٧٢٧ هـ ، وكالشيخ أبي القاسم السيد الشريف المرتضى صاحب الأمالي في ثلاثة أجزاء المتوفى ٤٣٦ هـ ، وكالمحقق الوز ير اليماني صاحب "إيثار الحق على الخلق" وكتاب "العواصم والقواصم" وكتاب " الروض الباسم" من معاصري الحافظ ابن حجر العسقلاني ، وكالشيخ بهاء الدين السبكي ابن تقي الدين المعاصر لابن تيمية في كتابه "عروس الأفراح" وكالأمير يحيى بن حمزة اليمني في "الطراز" من علماء القرن التاسع ، وغيرهم من أعلام الأمة وأعيان الملة ما يدور على علومهم رحى القوم ، و يدور في خاطري من برهة إن وفقني الله سبحانه وتعالىٰ لنظمت هذه الدرر المنثورة من كتب هؤلاء الجهابذة والفطاحل ، وإنما صدعت به ههنا ليكون الموفَّقون على بصيرة من الأمر ، والله الموفق(١) .

ذكر التفاسير الأربعة المتداولة

ولما كانت الحياة الموهومة محدودة ، والحاجات والآمال ممدودة ، والهمم تقاعدت ، والعزائم تقاعست ، والأفكار تشعبت بها الأهواء في أودية شتى ،

---

(١) وقد كتب إليّ الأستاذ أو يس النكرامي أني لما قرأت هذا أحيطك علما بأني جمعت ما بثه الحافظ ابن القيم في كتبه ما تيسر ، ثم زاد عليه ما فاته من كتب الشيخ حامد الفقي المصري وطبع الكتاب بالقاهرة بعنوان "التفسير القيم من كلام ابن القيم" ، منه .

والمساعي ذهب هباء ، فأريد أن أنبّه الطلبة إخواني من طلبة العلم على تفاسير من التفاسير المطبوعة المتداولة بين القوم والرائجة اليوم ما لو أراد أحد أن يقنع بها لكفته ، ولو استقى من عيونها وبحارها لأروته ، فيجد فيها -إن شاء الله- كفاءً وكفايةً ورواءً وسقايةً ، وهي عندي التفاسير الأربعة:

الأول : تفسير الحافظ عماد الدين ابن كثير: الشافعي الدمشقي من تلامذة الحافظ ابن تيمية المتوفى ٧٧٤هـ ، وتفسيره تفسير منخول عن "تفسير ابن جرير" وغيره روايةً ودرايةً لا يكاد يوجد له نظير في خصائصه في تفاسيرَ المحدثين ، قال شيخنا إمام العصر : لو كان يغني كتاب عن كتاب لكان هو "تفسير ابن كثير" فإنه أغنى عن "تفسير ابن جرير".

والثاني : تفسير مفاتيح الغيب : المعروف بـ "التفسير الكبير" للإمام الكبير المحقق فخر الدين ابن خطيب الرازي الشافعي المتوفى ٦٠٦ هـ ، قال شيخنا: لم أر مشكلا من مشكلات القرآن إلا والإمام تنبه له ، وكان يقول : إن الإمام يغوص في المشكلات بيد أنه ربما لا يظفر بحلٍّ بعض المشكلات بحيث تطمئن به القلوب و تقتنع به النفوس ، وكان شيخنا يقول: إن ما قيل في حق تفسيره: "فيه كل شيئ إلا التفسير" ، كما حكاه صاحب "الإتقان" هو حطٌّ عن قدره الجليل ومنزلته السامية ، ولعله قول من غلبت عليه سرد الروايات فقط من غير ذكر لطائف القرآن وعلومه .

والثالث : تفسير روح المعاني : لمفتي بغداد أعلم أهل عصره السيد محمود الآلوسي الحنفي نابغة القرن الثالث عشر ، ومزاياه البارعة تجذب القلوب ومحاسنه تأخذ بالألباب ، وعندي بمنزلة "فتح الباري لصحيح البخاري" في غزارة المادة ، و نصاعة التعبير ، و براعة التحبير ، غير أنه لما كان "فتح البارى" شرحاً لكلام

مخلوق فقضى به الدين الذي كان على رقاب الأمة من شرح "الصحيح" و وفَّاه حقه ، وكلام الله سبحانه وتعالىٰ أجلُّ من أن يقوم بأعباء حقه أحد من البشر ، وإن استنفدوا فيه القوى والقدر.

والرابع : تفسير الشيخ أبي السعود الحنفي : مفتي السلطنة العثمانية خطيب المفسرين قاضي القضاة العلامة المفسر الفقيه محمد بن محمد العمادي المتوفى ٩٥١هـ المسمى بـ "إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم" اعتنى بصدع غرض نظم التنزيل في تعبير رائق ، وتصوير فائق ، وهو يغني في كثير من المزايا عن "الكشاف" للإمام الزمخشري.

فهذه أربعة كتاب : اثنان للشافعيين واثنان للحنفيين مما يكاد يقتنع بها مفسر قليل الفرصة ، ومن حاول الاطلاع على العلوم الجديدة ، والفنون الحديثة ، وبدائع الأكوان ، وغرائب التكوين ، ونواميس القدرة الإلٰهية ، فليضم إليها تفسير "جواهر القرآن الكريم" للشيخ جوهري الطنطاوي ، نعم رأيه في نقد الحديث مما لا ينبغي أن يثق به أحد ، فربما ينقد الحديث بمحض رأيه من غير أن يعول على شريطة أهله ، كذا أفاده شيخنا رحمه الله ، ومن شاء تقرير مقاصد القرآن و أغراضه في أسلوب عصري فليضم إليها أجزاء تفسير "المنار" للفاضل السيد رشيد رضا المرحوم ، غير أنه لا ينبغي التعويل في جميع ما يقوله و يزعمه ، وإنه يحتاج إلى انتقاء وتنبيه على أمور حاد قلم شيخه أو قلمه عن مسلك أهل الحق فيها ، وبالجملة : كدر هذين التفسيرين "الجواهر" و "المنار" لا يمنع عن الانتفاع بصفوهما ، نعم ! وليكن بين يدي المستفيد قول الحماسى :

ولا يغرنك صفو أنت شاربه
فربما كان بالتكدير ممتزجا

وقوله :

قدر لرجلك قبل الخطو موضعها
فمن علا زلقاً عن غرة زلجا

ذكر بعض التفاسير الملخصة الممتعة

هذا ! ومن أراد الاقتناع بأقل منها فليقتنع "بغرائب الفرقان" للشيخ المحقق النيسابوري ، وهو ملخص مفيد من تفسير الإمام الرازي الذي سلف ذكره مع زيادة حسنة مفيدة ، وبتفسير أبي السعود العمادي المذكور ، فهذان التفسيران يكاد يكتفي بهما رجل عديم الفرصة في حل مطالب التنزيل العزيز أو ابن كثير والكشاف ، ومن رام الاقتصار بواحد وإن كان بمنزلة البرض من عد ، وثمد من ثرثارة فوارة ، فإن رام تفسيراً مبسوطاً فعليه بـ "روح المعانى" ما سبق وصفه فإنه أتى بزبد الروايات ، وطرف الدراية والبلاغة ، وإن رام مختصراً ملخصاً فعليه بتفسير "الجواهر الحسان" للشيخ العالم العارف عبد الرحمن الثعالبي الجزائري ، وهو مختصر نافع غاية النفع ، لخص فيه تفسير ابن عطية أبدع تلخيص، وأتى بزيادات رائقة نافعة من نحو مئة مؤلف من علوم مختلفة ، فهى الآن جميعها ثمانية أسفار من التفسير ، فمن شاء فليكثر فإن الموضوع خير كله .

ومن أراد حلَّ نظم القرآن الكريم في لغة أردوية هندية بأبدع أسلوب وأفصح تعبير في أقصر وقت فعليه بمطالعة الفوائد التفسيرية على القرآن لشيخ مشايخنا شيخ العصر العارف مولانا محمود حسن الديوبندي المتوفى ١٣٣٩هـ المدعو بـ "شيخ الهند" رحمه الله تعالىٰ ، ومحقق العصر الحاضر شيخنا ومولانا شبير أحمد العثماني - رحمه الله تعالىٰ - فإنهما أتيا فيها بعجب العجاب في حل نظم الكتاب وإفصاح غرض التنزيل بكلمات كلها درر ذات بهاء وغرر ذات سناء ، وربما لا تنحلّ عقدة من تصفح هذه المجلدات الكبيرة وتفقد هذه المادة الزاخرة ،

وتراها قد حُلِّت فيها بأخصر عبارة أو ألطف إشارة ، فشكر الله مسعاهما الجميل ، وهي مما لا يستغني عنها الفضلاء بحال فضلا عن طلبة العلم في عهد التحصيل ، فإنه ليس في العربية في كتب التفاسير المطبوعة التي بأيدينا ما يخلفها أو ينوب منابها أو يعتاض عنها ، لا أقول : إنها غنية عن مراجعة تفاسير القوم بل أقول : كما إنها ليست غنية عنها كذلك التفاسير ليست غنية عنها.

التفاسير المفيدة وخصائص التفاسير المطبوعة

ثم أوضحت في محاضرة لي ما ذكرته هنا وملخصها أنى جعلت التفاسير المطبوعة على أصناف خمسة :

١-تفاسير لعلماء العربية وأئمتها : كـ"الكشاف" و "أبي سعود" ، و مختصرات الكشاف كـ "البيضاوي" ، و"المدارك" ، وتفسير أبي حيان : "البحر المحيط" و "النهر المادّ من البحر" و "الدرر اللقيط من البحر المحيط" وقد فصلت القول تفصيلاً في مزايا "تفسير الكشاف" وفوائده مع التنبيه على تعصبه للاعتزال ، وطعنه على أهل السنة ، ورميهم تارةً بالمجبرة ، وتارةً بالحشوية ، وقسوته في الكلام عليه حتى بلوغه إلى السب والشتم ، وعدم نزاهة لسانه في الردود العلمية مع زهده وورعه ، فسبحان الله قاسم الغرائز وخالق الطبائع ، وذكرت أنه لا يقوم مقامه كلُّ من جاء بعده ولخَّص كلامه أو غيَّر لفظه أو زاد عليه الأعاريب .

وأحسن تفسير بعده هو تفسير أبي سعود "إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم" وفيها بعض فوائد من بعض الجهات تزيد على "الكشاف" و على كل حال، المفسرون من أهل العربية كلهم عيال على "الكشاف" لحمتها وسداها منه ، وكذلك أثنيت على تفسير للشيخ عبد الرحمن الجزائري الثعالبي

"الجواهر الحسان" الذي لخَّص فيه تفسير ابن عطية وزاد فيه من مئة مؤلّف ، وبالجملة هذه تفاسير أئمة العربية التي هي متداولة مطبوعة .

٢ - **تفاسير المحدثين** : و "تفسير ابن جرير" و "تفسير ابن كثير" و "الدر المنثور في التفسير بالمأثور" تغنى هذه الثلاث البقية .

٣ - **تفاسير المتكلمين** : كتفسير الإمام الفخر الرازي "مفاتيح الغيب" ملخصه للنيسابوري "غرائب الفرقان" ، وأقدم تفسير فيها "التأويلات" للشيخ إمام أهل السنة أبي منصور الماتريدي ، وشرحه للشيخ أبي بكر السمرقندي ، ومن أحسن نسخه بالخط الجيد نسخة مكتبة الحرم المكي ، وهو تفسير جليل إلى الغاية ، وفيه أبحاث كلامية واسعة.

٤ - **تفاسير الفقهاء** : التفاسير التي لها عناية خاصة بالأحكام الفقهية وبيان المذاهب كتفسير "أحكام القرآن" للقرطبي ، ولكن لا تقل عنايته بالعربية واللغة من عنايته بالفقه ، وكـ "تفسير الجصاص أبي بكر الرازي" أوسع تفسير في مسائل الفقه وسرد الأدلة وبسطها ، وألف كالمقدمة لتفسيره "الفصول في الأصول" ونسخته الجيدة في مكتبة الحكومة بالقاهرة ، وقد استنسخناها ، والنسخة المنقولة عند إحياء المعارف النعمانية بحيدر آباد دكن بالهند ، والجصاص إمام في الأصول والكلام والفقه والحديث محقق واسع الاطلاع ، وكتفسير القاضي أبي بكر بن العربي ، وكتفسير الشيخ القاضى ثناء الله الباني بتي - في نواحي دهلي - الذي سماه باسم شيخه الشيخ "مظهر جان جانان النقشي" العارف بالله، سماه "التفسير المظهري" وهو تفسير بارع في تحقيق المذاهب ، وقد طبع في عشرة أجزاء ، و "التفسيرات الأحمدية" للشيخ أحمد الجونفوري الهندي مختصة بآيات الأحكام المشهورة .

٥ - **تفاسير الصوفية** : وهناك قسم خامس من تفاسير الصوفية كتفسير الشيخ الأكبر والغزالي ، و يقرب منها "تبصير الرحمن" للمهائمي الهندي وفيها نفائس ، وقد أراد السيد محمد الآلوسي مفتي العراق أن يجمع هذه الأقسام الخمسة كلها في تفسيره "روح المعاني" فكان أجمع تفسير جامعاً لهذه المزايا بعبارة متينة جيدة يشبه عبارة "فتح الباري" للحافظ ابن حجر والغالب عليه مسحة العربية والكلام ، ولتأخره في العهد تعرض لمسائل عصرية من المشكلات لا تجد في غيره ، وربما يتعرض لجواب ما يورده الرازي في تفسيره ثم لا يجيب .

شذرة من مآثر علماء الهند
ولا سيما لعلماء ديوبند مما يتعلق بالتنزيل العزيز
والتنبيه على تفاسير أهل الحق وأهل الباطل

ولما بلغت إلى هذا المقام ناسب أن أبوح بما لعلماء الهند ولا سيما لعلماء ديو بند من المنزلة القاصية في خدمة القرآن والحديث، والذب عن حريم الشريعة الإسلامية، والجهاد العملي والعلمي في حرية الوطن واستخلاصه من إسارة الحكومة البريطانية وبذر حمية الدين والغيرة الإسلامية، ونفخ روح النهضة الإسلامية والحرية الوطنية في قلوب أهل الهند من العوام والخواص، وإنقاذها من مخالب الدولة الغادرة الخائنة الأجنبية، و إنها منن كبرى أبين من فلق الصبح لا يكاد ينساها المؤرخ على تقادم الأعصار، و إنما أغراني على إبراز هذه الخدمات الجليلة خفاءها على إخواننا القاطنين في البلاد العربية، وظلم بعض أهل الصحف والأقلام في إخفائها وتدسيسها من غير أن يؤدوا حق الجوار بنصفة وديانة، و يا للأسف ! أين الإنصاف وأين الديانة ! طارت بها عنقاء مغرب، وخالات الناس بالدهناء قليلة، غير أن هذا الموضع ليس موضع استيفاء القول فيه، فنقتصر على إيماضات وبروق تنبئهم على غوادي هاطلة، والله المستعان والهادي إلى الحق.

فأقول : ومن مآثر علماء الهند "البحر المواج" تفسير القرآن الكريم بالفارسية للفاضل العلامة شمس الدين الدَّولت آبادي ثم الدهلوي من علماء

القرن الثامن الهجري من أصحاب الشيخ القاضي عبد المقتدر الشريحي الكندي.

و منها : تبصير الرحمن : تفسير في أربع مجلدات بالعربية للشيخ علي بن أحمد المهائمي المتوفى ٨٣٥ هـ ، و "مهائم" بلدة على ساحل البحر في قرب بمبائى ، وقد طبع بمصر وهو تفسير نفيس جيد اعتنى فيه بربط نظم التنزيل ونظام السور ، وفيه فوائد غزيرة .

و منها : التفسير المظهري : بالعربية للشيخ المحدث المحقق القاضي ثناء الله الفاني فتي من تلامذة الحجة الشاه ولي الله الدهلوي صاحب "حجة الله البالغة" و غيرها ، وهو تفسير بارع ولا سيما في بيان المذاهب الفقهية وتحقيقها ، وقد طبع حديثاً في عشرة مجلدات كبيرة .

ومنها : سواطع الإلهام : لأبي الفيض الفيضي من علماء السلطنة الأكبرية لجلال الدين أكبر سلطان الهند في القرن التاسع الهجري ، وهو فسّر القرآن كله بالحروف المهملة ، وتكلف في هذه الصنعة حتى أصبح مهملاً ، غير أنه يستحق الثناء بهذه المكابدة البالغة ، وسعة اطلاع اللغة العربية ، وإنجاز هذه الصنعة في سائر التفسير .

ومنها : فتح البيان : للنواب صديق حسن خان القنوجي في عدة مجلدات، وغيرها من التفاسير بالعربية والفارسية ما يشكل استقصاء ها .

أول من ترجم القرآن الكريم بالفارسية في الهند

ثم أول من ترجم كتاب الله الكريم بالفارسية في الهند(١) وسنَّ للأمة الحاضرة سنةً مسلوكةً في العالم هو الحجة العارف المحقق الشاه ولى الله الدهلوى

---

(١) و ترجم قبله الشيخ حسين الكاشفي في ضمن تفسيره بالفارسية ، وقبل الكاشفي ترجمة بالفارسية منسوبة إلى الشيخ سعدي الشيرازي . منه.

المتوفى ١١٨٦ﻫ صاحب "حجة الله البالغة" و "البدور البازغة" و"الخير الكثير" و "التفهيمات الإلٰهية" و "إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء" و "المسوّى" و "المصفّى" شرحي "المؤطا" وغيرها من أسفار جليلة ، وأبدع في الترجمة وراعى فيها دقائق وأسرار لطيفة لا يكاد يفهمها كل أحد مالم يكن لهذه الحلبة مجلياً ، وكتب عليه فوائد لطيفة مختصرة وجردها عن الإسرائيليات سماها "فتح الرحمن" وكأنه وضع بذلك أساساً للتوحيد للأمة المسلمة ، ورحمه الله تعالىٰ فإنه قد أغنانا عن الخوض في بحث عدم جواز الترجمة باللغة غير العربية كما دار البحث مدةً في علماء مصر ، وظاهر أن فصاحة القرآن المعجزة لاندّعيها للترجمة مثلها حتى يتوهم انحطاط ترجمته عن إعجازه و يقدح ذلك في فصاحة التنزيل ، ولا ريب أن فهم معانيه بتحصيل ذرائعه من تحصيل العلوم العربية وما يناط به أمره أولى وأعلى، ولكن من لم يتيسر له ذلك فهل الحرمان له عن فهم القرآن المجيد أولى أو فهمه بترجمة في لغته الوطنية أولى ؟ وأرجو الثانى أولى بالاعتبار ، وإن كتاب الله أنزل للناس كافّة ، إنسهم وجنهم عربهم وعجمهم .

ثم لا ريب أن أصول الدين التي أرشد إليها القرآن علمها فرض على كل مكلَّف ، وتعلم العلوم العربية ليس بتلك المثابة ، فلو يدار أمر فهم القرآن على تلك العلوم ، ومن القرآن ما هو فرض علمه لكانت هذه العلوم فريضةً على المكلَّف ، فإن ما كان مقدّمة لأمر واجب فهو واجب كما تقرر في موضعه ، سلمنا أن الترجمة ليست بعزيمة ، ولكن الاستمساك بالرخصة في موضع يخاف هذا الأمر رأساً من العزائم ، ثم إن الله تعالىٰ لم يكلِّف كلَّ أحد بمعرفة إعجازه و براعة إطنابه وإيجازه ، كيف وهذا وراء قدرة كل أحد ، فرجل تيسر له ذلك وآخر يحرم منه ، ولا ريب أن القرآن بلاغ للناس وهدى للعالمين، فإن تُرجِم بلغات العالم ونُشِر فيهم لتمّت على العالمين حجة ربهم ، وقد قال تعالىٰ : ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر

فهل من مدكر﴾ و أيَّ تيسر إذا لم يكن ترجمته جائزةً باللغات العجمية؟! من خصائص القرآن أنه كلٌّ يستفيد منه العالم بعلمه والعامي بفهمه ، إذا اطلع على معناه وغرضه فليذكر وليعتبر ، وأما التفاسير فلا يكاد يقوم بأعبائها إلا أفذاذ و أفراد من العلماء الأعلام فضلاً عن الأميين والعوام ، وبالجملة : علماء الهند مجمعون على جواز تراجم القرآن في هذا العصر ، وعلماء مصر ومشيخة الأزهر أفردوا هذه المسألة بالتأليفات ، ولم ينفصم فيهم إلى الآن أمرها، وليس هذا موضع إنهاء البيان، والله الموفق.

أول من ترجم القرآن الكريم بالأردية في الهند

ثم الشيخ العارف الشاه عبد القادر نجل الشاه ولي الله الدهلوي المتوفى ١٢٣٠هـ تلا تلو والده ، فترجم القرآن الكريم باللغة الأردوية الهندية ، فأبدع في الترجمة وأجاد ، وعليها مدار الأمة الهندية اليوم في الترجمة وفهم كتاب الله العزيز، و بلغ في تنقيحها و تهذيبها و إجادتها و براعة أسلوبها ودقة مغزاها منزلةً شاسعةً حتى أصبحت كالسهل الممتنع ، و زاد نفعها بتحرير فوائد شريفة ما كشفت الأستار عن خرائد أغراض كتاب الله الحكيم ، عسى أن لا يوجد لبعضها نظير في هذه المادة الوافرة من كتب التفاسير فما ظنك بكلِّها ، وأما الترجمة فكادت أن تكون معجزةً باعتبار بعض خصائصها لوكان يمكن أن يكون كلام البشر معجزاً، غير أن الله تحدى بنظم كتابه الذكر الحكيم خاصةً ، فهذه مزية لا تجارى ولا تبارى .

وكذا تَرجَم القرآن نجله الآخر الأكبر من أخيه الشاه عبد القادر، الشاه رفيع الدين الدهلوي المتوفى سنة ١٢٣٣هـ ترجمة "أردوية" راعى فيها الترجمة اللغوية بترتيب كلمات القرآن ، وهي أنفع للعوام من ترجمة الشاه عبد القادر

-رحمه الله- .

وأملى نجله الأكبر البحر الزاخر الرحلة الحجة العارف الشاه عبد العزيز الدهلوي المتوفى سنة ١٢٣٩هـ على بعض أصحابه تفسيراً للقرآن العظيم من الجزأين الأخيرين ، والجزء الأول والثاني إلى قوله تعالىٰ : ﴿وأن تصوموا خيرٌ لكم﴾ وسماه "الفتح العزيز" وأتى فيه بعلوم سامية ، وفوائد غزيرة عالية ما يقضى العجب عن تبحره الجامع ، واستحضاره المحيِّر ، وحافظته الزاخرة ، وإحكام صنعته ورصانة تعبيره ، فإنه أملاه عن ظهر قلبه من غير مراجعة كتاب ولا تسويد في البين ، سبحان الله ! يعطي من يشاء ما يشاء ، وكان يقول شيخنا إمام العصر : يا ليت لو كمَّل هذا التفسير على هذا النمط البديع لقضى عنا حق تفسير القرآن العظيم حسب المقدور البشري .

ثم بعد ذلك بنحو تسعين سنة أو مئة سنة تَرجَمَ القرآن العالم المتقن الثبت الثقة مولانا الشاه أشرف علي التهانوي الديوبندي - طالت حياته - من تلامذة القطب العارف مولانا المحقق الشيخ محمد يعقوب النانوتوي المتوفى سنة ١٣٠٠هـ صدر الأساتذة بدار العلوم الديوبندية بعهده ومن تلامذة الشيخ المحقق شيخ الهند الديوبندي الذي سلف ذكره رحمه الله ، وفسَّر القرآن معها بالأردوية تفسيراً في مجلدات كثيرة ، كابد فيه لمطالعة كتب المفسرين ، ولخص فيها أموراً مفيدةً ، وحلَّ مواضع مشكلة غامضة بوجه أنيق ، وزاد نفعها بفوائد بالعربية لطلبة العلم وسماه : "بيان القرآن" .

ثم تَرجَمه العالم الفاضل الذكي مولانا عاشق إلٰهي الميرتي الديوبندي ، وضم مع الترجمة فوائد تفسيرية نافعة .

ثم لما أسر شيخ الهند في نهضة الحرية الوطنية وذهب به إلى جزيرة

"مالطا" أفرغ نفسه واستفرغ وسعه في مطالعة القرآن المجيد ، فأحسَّ ضرورة دينيةً لترجمة القرآن المجيد على أسلوب عصري بالحوار الرائج بين القوم بالأردو ية وتحر ير فوائد تفسيرية ، فشرع الترجمة حتى استوفاها وأوفاها حقها في عهد إسارته في السجن ، وأناط الأمر على ترجمة الشاه عبد القادر مجلّي هذه الحلبة الفسيحة الشاسعة لما كان يعتقد في ترجمته أن البراعة عليه مما يكاد يستحيل ، غير أنه لما كان من دقة النظر ولطافة الفكر وشرح الصدر ونور القلب بمكان لايدرك شأوه في عصره ، ولا يشق له غبار ، فغيَّر بعض تعبيراته بنفاسة وحسن تصو ير مراعياً سائر المزايا التي احتوت عليها تلك الترجمة النفيسة ، فراعى الفروق في الترجمة بين الصفة والبدل وعطف البيان ، وإذا احتمل المقام كلاً منها فأيها ألطف، وتضمنت هذه الترجمة دقائق ومحاسن تأخذ بالقلوب كل مأخذ ، وكلما يغوص فيها النظرُ و يغور فيها الفكرة تبدو محاسنها :

غراء مبسام كأن حديثها
در تحدر نظمها منثور

وكما قال أبونواس:

يز يدك وجهه حسناً　　إذا ما زدته نظرا

وكما قال قائلهم وحامل لوائهم :

و رحنا يكاد الطرف يقصر دونه
متى ما ترقى العين فيه تسهل

ثم شرع عليها في فوائد تفسيرية فوصل فيها إلى تمام سورة النساء ، وأتى فيها بكل ما يحتاج إليه نظم التنزيل العز يز في تنقيح مراده وإبداء غرضه بنهج بديع ولفظ نصيع ، فأطلق من السجن ووصل إلى الهند ، وتهاجم عليه المرض ،

ولم يمهله الأجل المحتوم حتى حان القضاء وضاق الفضاء ، ووصل إلى الرفيق الأعلى سنة ١٣٣٩هـ بعد مئة سنة كاملة من وفاة الشاه عبد العز يز الدهلوي .

ثم أضاعت يد الطوارق من فوائد سورة آل عمران ومضت برهة عليها ولم يكن عبقر ياً يفري فر يه ، فيكمل الفوائد و يتم ما ير يده الشيخ رحمه الله ، حتى بدت هذه السعادة الأزلية في حق من هو من أرشد تلامذته وأخص أصحابه شيخنا محقق العصر الحاضر مولانا الشيخ شبير أحمد العثماني صاحب "فتح الملهم" -رحمه الله - فأكمل فوائد سائر القرآن مرآعياً أصول شيخه بكلمات كلها درر وغرر في نحو ثلاث سنين ، وأتى فيه بما يحتاج إليه أهل العصر من تز ييف أقوال سخيفة مردودة من بعض ملاحدة أهل العصر مثل محمد علي القادياني اللاهوري صاحب "بيان القرآن" في الأردو ية والإنكليزية ، و غيره من أهل البدع والأهواء ، و قد سلف ذكر هذه الفوائد فتذكره .

فهذه هي تراجم أهل الحق تراجم صحيحة نفع الله بها الأمة كثيراً ، وأصبح عليها المدار في أقطار الهند ، وسارت بها الركبان في الأمصار ، فأكثر العلماء والطلبة الذين يدرسون القرآن و يتدارسونه ينتفعون بها ، ولا سيما الترجمة الأخيرة مع الفوائد ، وبعد ذلك وفي أثناء ذلك تتابعت تراجم القرآن وفوائده التفسيرية بعضها صحيحة من أهل الحق كتقر يرات لترجمة القرآن أفادها العالم العامل العارف مولانا الشيخ حسين علي الفنجابي - رحمه الله - من تلامذة قطب العصر مولانا المحدث أبي مسعود رشيد أحمد الكنكوهي الديوبندي المتوفى سنة ١٣٢٣هـ ، ثم ظهر فيما بعد أن أماليه هذه فيها مؤاخذات وانتقادات زلَّ فيها القلم عن الجادة القويمة لاندري هل هي من الضابطة أو صاحب الأمالي فيستأنف النظر فيها ، ورأيت في عدة مواضع ما يحتاج إلى التنبيه على التقصير في التفسير ، فمنها في

آية ذبح البقرة ، ومنها في قوله : ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ وفي قوله : ﴿لا تقولوا راعنا﴾ وفي آية تحويل القبلة ، وفي قوله : ﴿ومن يكفر بالطاغوت﴾ وفي آية الكرسي وغيرها ، وسمعت أن بعض الأفاضل من أهل العصر قد قام بالردّ عليه فأفرد فيه تأليفاً ، وإلى الله المشتكى ، وكذا لمولانا المحترم مولانا أحمد علي اللاهوري - رحمه الله - ترجمة للقرآن وفوائد تفسيرية .

بعضهم خلطوا صالحاً وسيئاً كترجمة دبتي نذير أحمد الدهلوي ، والميرزا حيرت الدهلوي ، ومنهم من حرّف مراد القرآن ومسخ معناه ، وأفرغه في قالب هواه ، وجعل الهاوية مهواه ، مثل محمد علي القادياني الذي أشرنا إليه ، وعُمدتُه في ذلك تفسير السار السيد أحمد خان الدهلوي باني كلية عليكره بالهند ، والطبيب أحمد حسن الأمروهي المرزائي القادياني واسم تفسير هذا الأمر وهي "غاية البيان" فيما أتذكر ، وحشاه بالأباطيل وحاول إضلال الناس .

سرسيد أحمد خان الدهلوي
باني الكلية الإنكليزية وتفسيره

ولما جرى ذكر تفسير السار سيد أحمد خان الدهلوي لكان من المداهنة المذهبية والنفاق الجلي لو لم يُكشف عن أمر هذا الرجل وتفسيره، فإنه أصبح زعيماً وقدوةً لكثير من أهل الأهواء من المتنورين الذين أظلم عليهم سبيل الملة الحنيفة البيضاء، وهو رجل زنديق ملحد أو جاهل ضال أراد الوصول إلى الحق فأخطأ الطريق السوي، وأناط الأمر في أمور الشريعة وشعائر الدين على عقله السخيف الزائع فضلّ وأضلّ، وكان دأبه أن كل ما يرد من أهل أوربا من الاعتراضات السخيفة على الملة الإسلامية كان يسلمه و يقبله، ثم طفق يتأول القرآن والسنة، وأخذ يقرب الإسلام إلى الكفر حتى يجعلهما ديناً واحداً، وكأنه أراد التقرب به إلى أهل الكفر الذين كانت بأيديهم الحكومة في الهند، فأنكر وجود الملائكة وقال: إنها القوى الملكية للخير في فطرة الإنسان وجبلته وليس عالماً مستقلاً خارجاً عن وجود الإنسان بل هي صفات منضمة إليه، وأنكر الشياطين وقال: هي قوى الشر المودعة في فطرة الإنسان، وأنكر الحشر والمعاد الجسماني بل أثبت الروحاني فقط كملاحدة الفلاسفة، وأنكر السماوات وأنكر الأرواح.

وأنكر النبوة الشرعية التي هي موهبة إلٰهية ختمت لسيدنا خاتم الأنبياء

محمد ﷺ و زعم أنها أمر يحصل بالكسب ، و بدّل صفاتها وغيّر أماراتها ، وسوّى بين النبي و بين كل من قام مصلحاً في ملة من الملل أيما كان ، وأنكر الخوارق الصادرة من الأنبياء بأمر الله القدير ، وقال : إن الخوارق غير مقدروة لله تعالىٰ ، وكأنه أبطل التكليف والتشريع ، وتأوّل في سائر الضرور يات الدينية القطعية والنصوص الصريحة الصحيحة القطعية دلالةً وثبوتاً حتى قال في خطبة ألقاها في بلدة "ميرت" : إن الأسلام فوّض إلينا أمور الدنيا فنعمل فيها ما نشاء وكيف نشاء حيث ورد : ((أنتم أعلم بأمور دنياكم مني)) الحديث ، وأما أمر الدين فوسع فيه علينا حيث ورد : ((من قال : لا إلٰه إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق)) الحديث ، فهذه كانت عنده زبدة الشريعة وخلاصته وصار كالقرامطة الباطنية والإسماعيلية والمزدكية والإخشونية وغيرهم من إخوانه الملحدين ، والزنادقة المتأولين في ضرور يات الدين ، وكان هو تلميذهم الروحاني أخذ عنهم ثم زعم كأنه اخترعها ، وسوّل له الشيطان أمره فتأوّل نصوص القرآن والحديث بتأو يلات سخيفة ركيكة تعافها الطبائع السليمة ، وتمجها الأسماع الصحيحة ، لا يُتأوّل بمثلها كلام عاقل فكيف بكلام بليغ وكيف بكلام الله المعجز بلاغةً وفصاحةً؟! وكيف بكلام من أوتي جوامع الكلم؟! وقد أعمى الله بصيرته فكان لا يعلم هل لتلك التأو يلات مساغ في العربية ، نعم أرخى عداء الدين على بصره سدول الجهل البين العوار ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ، وزعم أنها خدمة للدين ، و به يتحد الكفرة والمسلمون .

فهكذا حرّف القرآن ومسخ الدين ، وشوّه وجوه الشريعة المطهرة ، وألّف على هذه الأصول الموضوعة تفسيراً سماه "تفسير القرآن" بالأردوية ، وحُقَّ أن يسمّى بتحريف القرآن ، وقد سبق في التحريف على أحبار اليهود بمنزلة شاسعة هم دونه بمراحل ، غير أن الله وعد حفظ نظمه الجزيل ، فلم يقدر أن يحرفه

و يبدله، وإلا فلم يكن أن يكفه عنه أمر ، ولم يكد أن يصدَّه عنه شيئ ، فهكذا باع دينه بنهضة الأور بيين مجاناً ! ثم لم يقتنع بهذا القدر بل بث إلحاده في تفسيره وسائر مؤلفاته وخطبه .

ذكر من قام بالرد عليه

غير أن الله وعد صيانة الدين إلى حين ، وجرت سنته في عباده لم يخل زمان من أهل الحق القائمين بأمر الدين ، ومن المثل : لكل فرعون موسى ، ولكل خرق راقع ، أقام لدمغ كفره و إلحاده ، و تطهير الدين من خباثته و أنجاسه ، الفاضل الحبر مولانا أبو محمد عبد الحق الدهلوي مسكنا والديوبندي تعلُّما وتلمذةً المعروف "بالحقاني" فأبلغ في الرد عليه قلماً ولساناً ، ووضع جمر الغضا في ضلوعه وجوانحه ، وأباد ما سنح له من بوارحه وسوانحه ، وهكذا يقيم الله لمكامعة الفئة الضالة رجالاً حلب الدهر أشطرهم محنكين مدربين ، يعرفون دسائسهم ووساوسهم ، ويحسون رذائلهم وخسائسهم ، فيميزون من الطيب خبثهم وخبائثهم .

و بالجملة : فصنف هذا الفاضل تفسيراً في الرد عليه وسماه "فتح المنان" وقد نفع الله به الأمة ، وله كتاب مبسوط كالمقدمة لتفسيره في استيصال شأفة إلحاده والرد على أصوله الزائغة وسماه : "البيان في علوم القران" وقد ترجم إلى الإنكليزية فشرق وغرب ، فهذه نبذة من شئوون ذلك الرجل ، فأنصف أيها الخبير المنصف ! و بالله أنشدك ، فإن الإنصاف خير الأوصاف! هل غادر الرجل شيئاً من الدين أو حمية الوطن وحر ية الملك لم يبذل جهده في إبادتها؟! و يا ليت لوكان كفره و إلحاده غير متعدّ ، وقد حاول هو أن يدين الناس كله بدينه ، و يؤمنوا بما تفوَّه به بشدقيه ، وقد استهزأ في بعض المواضع من كتبه بحجة الإسلام

الغزالي -قدس سره - فانظر إلى أين بلغت سفاهة هذا السفيه الملحد ، وإلى أين بلغ عوائه الأنكر ، وزعم أباطيله وتسو يلاته أسراراً ودقائق حتى قال في تفسيره في حق الصحابة : إن رعاة الإبل لم يكونوا أن يفهموا هذه الحقائق ، فلذا لم يصدع بها الشريعة بل مثّل لهم تمثيلات تناسب أفهامهم ، و يا للأسف ! تفاقم الشر و بلغ السكين العظم!!.

وأنا أتعجب من المؤرخ الشهير بالهند شبلي النعماني صاحب كتاب "سيرة النبي" و "الفاروق" وغيرهما أنه كيفّ يعتقد في ذلك الرجل ما يورث العجب ، بل أتأسف بذلك مالا أكاد أطيقه ، فإنه يخاطبه في مكاتيبه بقوله : "سيدي ومولائي" ولما مات ذلك الرجل كتب إلى بعض أصدقائه : "تزعزت أركان الملة أعني انتقل السيد أحمد خان بهادر إلى جوار رحمة ربه ، وذلك يوم الأحد ٢٧ مارس ، وتفرق شملنا، إني لا أقدر على أن أشتغل بشيئ إلا بعد برهة من الزمان ، والسلام ، شبلى نعمانى ٢٩ مارس ١٨٩٨ م ، "مكاتيب شبلى".

فانظر هذا لفظه بالعربية ، فلا أدرى ولست إخال أدري هل هي مداهنة دينية لمصالح مشتركة أو ذلك من ائتلاف أرواحهما و اشتراك مقاصدهما في العلم والفهم ؟! ذلك مبلغهم من العلم ، وإنما أبوح به على أعين الناس إذ ليس من الدين أن يُغمض عن كافر ، كما ليس منه أن يكفر مسلم ، والناس في هذه المسألة على طرفي النقيضين : إما جاهل مفرِط، أو مفرّط ، كما قاله شيخنا إمام العصر في رسالته "إكفار الملحدين" بل الإغماض عن الكافر أشدّ ضرراً على الإسلام من إكفار مسلم و ليس هذا موضع بيانه ، فارجع البصر كرّتين إلى ذلك المكتوب ، فإذا كان مثل ذلك الرجل من أركان الملة فما ظنك بالملّة ، وأنت ترى أنه لم يغادر ركناً من أركان الملة إلا وقد زعزعه لوكان يتزعزع بهذه المساعي الخائبة ،

و ياللعجب ! رجل حرّف القرآن والدين ، وجعله أمراً ذهنياً ، وساعد الدولة البريطانية في غرز شبكتها ، فخان الله ورسوله ، وخان الوطن ، وخان إخوان الملك وأبناء الوطن في تأييد سلطة الحكومة الملعونة ، ثم يكون هو من أركان الملّة؟! لو كانت الملّة هذه فأبرأ إلى الله من هذه الملّة الزائغة .

ثم الأسف كل الأسف على حال هؤلاء الرجال ، يشار إليهم بالأصابع وهذه عجرهم و بجرهم ، وذاك خبرهم ومخبرهم ، وهذا المؤرخ الفاضل نفسه قد شحن كتبه ورسائله بأمور لا يكاد يقبلها رجل يؤمّن بالله ورسوله وثلج بالإيمان قلبُه وشرح الله صدره ، واتفق هو في كثير من أصوله مع الرجل المذكور حاله ، وغاية ما يمكن أن يعتذر من هذا المؤرخ أن نعدّه من غلاة المعتزلة وإلا فالخطب جليل ، والرزء فادح ، وقد بلغ السيل الزبي ، وتفاقم الفساد ، وتراكم الشر في الأمة ، ودبّ فيهم داء المداهنة ، وسرى فيهم النفاق إلا من أتى الله بقلب سليم ، أو عصمه الله رب العالمين ، ثم إذا كان هذا حال الرجل وشأنه فما ظنك بأتباعه وذرياته ، والله الموفق والهادى إلى صراط مستقيم ، ثم العجب من أتباع هذا المؤرخ كيف يرخون السدول على ما خالف فيه صرائح السنة وعقيدة الإسلام الإجماعية ، نعم إن الأرواح جنود مجندة ، ما ائتلف منها تعارف ، وما اختلف منها تناكر ، ثم لكلهم هفوات في القرآن والحديث والتاريخ يليق بها التنبيه غير أن هذا ليس موضع ذكرها ، هدى الله الأمة المحمدية كلها للسداد و جنبنا عن الزيغ والإلحاد ، ويحذركم الله نفسه ، والله رؤوف بالعباد ، توفانا الله على الديانة الإسلامية والشريعة المحمدية ، والله الهادي إلى الحق وإلى الصراط المستقيم ، وصلى الله تعالىٰ على خير خلقه سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين .

ترجمان القرآن لأبي الكلام (آزاد) أحمد الدهلوي

الخير أبقى وإن طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد

"ترجمان القرآن" ترجمة بالأردو ية للقرآن ، وعليها فوائد وجيزة و مبسوطة لأبي الكلام أحمد الدهلوي، لا بد أن أبين شأن هذا الكتاب وما فيه من مخالفة السنة وإجماع الأمة ، وإنما حثّني على هذا كلمة لبعض أهل العصر أشاعها في جر يدة القاهرة "الفتح" من العدد رقم ٥٦٢ وقد قيل : يداك أو كتا وفوك نفخ، وأثنى عليه بما لا يليق به ، وأغمض عما فيه من المثالب والهفوات أو لم يدرها ، ولا يحرى بنا أن نخدع علماء مصر ونغرّهم بالثناء الكاذب على رجل من رجال الهند ، فإن النصح لله ولرسوله أعنى بنا من المديح الكاذب على أحد من أبناء الهند ، ولا يليق بنا أن نشتري سخط الخالق في رضاء مخلوقه ، ورضاء الله ورسوله أهم وأقدم من رضاء رجل لم يحتفل في أيّ واد أرداه قلمه ولسانه ، وقد أومضت إلى بعض هفواته في رسالتي "نفحة العنبر" من قبل طلباً لرضاء الله تعالىٰ وأداءً لحق البلاغ الديني إلى إخواني طلبة العلم وعوام الأمة المسلمة الهندية .

وأنا أدري أن الناس سيفتحون أفواههم ومحابرهم للازدراء بي والطعن عليّ والرمي بالجمود والعصبية والبلادة ، بيد أن تلك سنة جار ية في القرآن وقال شاعرهم :

أعيّرتنا ألبانها ولحومها وذلك عار يا ابن ر يطة ظاهر

وقال آخرهم :

وعيّرها الواشون أني أحبها وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

وما توفيقى إلا بالله عليه توكّلت وإليه أنيب .

قال صاحب الكلمة : ومن التفاسير التي ألفت باللغة الهندية تفسير الإمام أبي الكلام الذي لا يضاهيه تفسير في العالم الإسلامي غير تفسير الإمام الحجة المغفور له السيد رشيد رضا اهـ . ولا أدري هل أراد بتلك الجملة ثناءً خرج من جذر قلبه ائتلافاً بما قاله ذلك المفسر ، أو داهن لمصالح يقتضيها العصر ، وأيّا ما كانت فلست أدين الله بشيئ منه فأقول: إن أبا الكلام أحمد الدهلوي رجل وقّاد القريحة واسع الاطلاع ، صاحب بيان و بنان في الأردوية ، وعسى أن يكون فريداً في بدائع الإنشاء ومحاسن الخطابة في الأردوية بعصره بل كاد يكون مخترعاً لبديع أسلوبه ، وحياته قبل عشرين عاماً كان أنفع للقوم من حياته الحاضرة ، وله قدم راسخ في السعي لإنقاذ الوطن عن مخلف الحكومة الأجنبية وسلطة الدولة البريطانية ، ولم يأخذه فيه خوف الحكومة وصولتها ، ومن ثمّ سكت، كثير من علماء الحق في شأنه وحاله.

وفي قلبي له منزلة من مساعيه الجميلة في سبيل حرية الوطن ، وأنه استحث في أوائل أمره كثيراً من أولي الهمم المتوانية ، وأيقظ الرقود في سبيل جهاد الحرية بإجراء جريدتيه "الهلال" و "البلاغ" وبخطابته الجاذبة للقلوب في المحافل السياسية ، بيد أنه رجل معجب بنفسه ، معجب برأيه وفكرته ، يزدري بالعلماء بل بأكابر علماء الملة إذا خالفت أقوالهم رأيه وهواه ، فأصبح بحيث ترى فيه شحاً مطاعاً ، وهوىً متبعاً ، و إعجاباً برأيه ، و خروجاً عن المسلك القويم والعلم الصحيح ، كان في أول أمره رجلاً صحيح الاعتقاد فيما نعلم منه و يشهده

به آثاره ومقالاته في جرائده ورسائله إلا أنه لم يكن مقلداً في الفروع لأحد من الأئمة كأهل الحديث من القاضى الشوكاني والنواب صديق حسن خان وغيرهما، غير أنه لم يكتف بهذا القدر بل أخذه الموجدة على العلماء الحنفية حتى إمام الأئمة فقيه الأمة أبي حنيفة - رحمه الله - في " تذكرته" فكان هذا يسيئ الأدب مع أكابر الأمة ، وسعى لأن يكون إماماً متفقاً على إمامته في الهند ، وأن يجمعوا على ذلك ، ولكن كان في الهند رجال أولو علم صحيح ، أصحاب معرفة وتقوى وديانة حقة، وكان هو كما قلت : في سعة من أمر دينه ، حبله على غاربه ، غير مقيد في رأيه ، وكان دون هؤلاء في العلم والعمل بمراحل ، فقام علماء ديو بند وصدعوا بالحق بأنه ليس أهلا لذلك ، فإنهم تفرسوا في إمامته من المفاسد التي يشكل أن يغلق بابها فيما بعد، فلم يفز بما كان يهواه و يتمناه .

وبالجملة : إنه كان على تلك الحالة برهة أعلن أنه يؤلّف تفسيراً، فاستشرفت إليه الأعناق وارتقبه الناس ترقب الهيمان إلى الزلال العذب والنمير البارد ، حتى يطبع جزء ثم جزء ثم ترجمة القرآن وعليها فوائد مختصرة مطولة وسماها: "ترجمان القرآن" وبسط القول في تفسير سورة الفاتحة ، فأخذته باشتياق ، وطالعت منه تفسير الفاتحة بأسره وعدة مواضع من تفسير آيات مختلفة متفرقة ، فانطفأت في قلبي لوعة الاشتياق ، بل تأسفت و وددت أن لو لم يطبع لكان أحسن وأحرّ ، فإنه كان له في القلب منزلة ، ورأيت أن الرجل تشعبت به الأهواء في كل واد ، ولم ينج من مداحض الأوهام ، فأحسست أن ذلك الإعجاب بنفسه و برأيه أورده أولاً إلى انخلاع ربقة التقليد ، وانتهى به آخراً إلى موارد حائدة عن الصراط السوي:

وكل يدعي حباً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا

شيئ من هفواته

فمما حقق ذلك الرجل في تفسير : ﴿ا هدنا الصراط المستقيم﴾ أن كلّ دين من الأديان في العالم سواء كان دين النصرانية أو اليهودية أو الصابئية لو دان به الرجل في صورته التي أتى بها شارع ذلك الدين كفى لنجاته يوم القيامة ، فإن أصل هذه الأديان كلها واحد وهو الإيمان بالله والعمل الصالح ، وشارع كل دين أتى بالتوحيد وهدى إلى العمل الصالح ، وإنما الشرك وأعمال الشر نشأت في أتباع المذاهب من تحزبهم وتشيعهم ، وهو يردد ذلك في تفسيره ، و يدندن حوله بعبارات مختلفة وأساليب شتى ، وهو يقول : إن القرآن ينادي بأعلى نداء إلى ذلك ، و يزعم أن ذلك الذي فهمته هو مغزى القرآن وغرضه ، و يستدل لذلك بقوله تعالىٰ : ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (٥٩-٢) والعمل الصالح ليس عنده الأحكام التكليفية والشرائع وليس المدار عليها عنده ، و يقول: إن تلك العبادات وتلك الشرائع ظواهر ورسوم ، وإنها صور وأجساد ليست هي حقيقة الدين ولا روحه ، فكل من أنكر الشرائع والأحكام التكليفية اعتقاداً فيكون عنده مسلماً ولا بد .

وقال في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ وفي قوله تعالىٰ ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ : إن الإسلام عبارة عن الوحدة الدينية العامة لا تختص بشرع دون شرع ، فالملل كلها تدعو إلى هذه الوحدة العامة والصدق الكامل على سواء ، فليست الملة الإسلامية عنده مجموع الاعتقادات الخاصة والعبادات المخصوصة ، وهو يقول : وإن اختلاف هذه الرسوم والشرائع ومناهج التحنث والتعبد مما لم يكن عنه محيص ،

فليس مما ينكر أو يستحق الملام، فأوسعوا له صدوركم الضيقة ، وذروا ما أنتم عليه من التضييق والتحجر. فلو تعبد أحد بالشريعة الموسوية ، وأحل حلالها وحرم حرامها بعد أن جاء الإسلام ونسخ الشرائع السابقة فذلك الرجل لا محالة مسلم ناج على ما تصدع به أصوله الموضوعة ، وغير ذلك مما مَوَّهه وزخرفه بأساليب إنشائه، وحَبّره بتحبيراته ، وغرَّ الناس بخضراء دمنته . فهى يقعقع بالشنان وجوفه هواء، ويجعجع من غير طحين ، وكله هباء.

وهذا الذي قلته مغزى عبارته الصريحة ، لايكاد يُتأول في شيئ منه ، اللهم إلا أن يكون للصرائح تأويلات غير سائغة ، فإنه صرّح به كفرق الصديع وضوء النهار ، ولم يترك لشفرة محزاً ، ولا للتأويل مساغاً في البين ، فهل قصّر قلم الرجل عن إفصاح مرامه وهو رجل فصيح يقدر على الصدع بغرضه بلفظ ليس فيه عيٌّ ولا يشوبه نغض التعمية ودنس العجمة ، فكيف يؤثر تعبيراً لم يرد منه ما يتبادر إليه الذهن ، و يفتقر إلى صرفه عما يسرع إليه فكر الناظر مساقاً ومذاقاً ؟ فهل لك لذلك التأويل سبيل يشفي الغليل و يغني عن القال والقيل ؟ وهو يقول : إن الإسلام دعا الناس أهل الأديان كافةً إلى أن يتمسكوا بعري أديانهم منقحةً منخولةً مما خلطوا به من الباطل واتباع الهوى ، ولم يعزم عليهم أن يذروا أديانهم ويختاروا ديناً غيرها ، إلى غير ذلك من التلبيسات والتدليسات مما يوقع الناس في ورطة الهلاك وهوة الردى:

ألا تسألان المرأ ما ذا يحاول　　أنحب فيقضى أم ضلال و باطل

وكل امرئ يوما سيعلم حاله　　إذا كشفت عند الإلٰه الخصائل

وأهل جريدة "معارف" كتبوا في الرد عليه مقالة مبسوطةً ، وقابلوا تراجم بعض آياته "وترجمانه" بما ترجمه قبل ذلك بعشرين عاماً في جريدته

"الهلال" و أوضحوا بما فيهما من الفرق البين والاختلاف المبين ، فلا أدري كيف يكون هذا التفسير في مثل هذه المخترعات التي ليس عليها سلطان ، والهفوات التي لم يقم عليها برهان ، والعجب أن صاحب تلك المقالة في جريدة "الفتح" الذي يثني على تفسيره و يعتقد فيه من المديح الغالي من رفقاء أعضاء جريدة "المعارف" وهو على بصيرة من مقالة "المعارف" فكيف قال ما قال؟!، و إلى الله الاشتكاء، فقد بلغ الحزام الطبيين ، و بلغ السكين العظم، لا عاصم اليوم إلا من رحم .

ثم إن ما ذكرته هي أصوله التي عليها أساس تفسيره ، وأما تحويل كثير من الآيات إلى ما يهواه والتأويل فيها بما لا يحبه الله ولا يرضاه ، وما لم ينقل ممن أنزل عليه القرآن ، ولا من أصحابه المخاطبين به ، بل ثبت وصح خلاف ما قاله كثير ليس هذا موضع سرده ولا موضع الرد عليه ، وإنما نقتصر على تفسير بعض الآيات إيقاظاً للغافلين، وتحذيراً للمغرورين .

فقال في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿كونوا قردةً خاسئين﴾ كونوا أذلاء مهانين كالقردة ، منحطين نازلين عن رتبة الإنسان ، فتخرجون من محافل المروءة والإنسانية مدحورين.

وقال في (ص-٢٦١) في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿فقال لهم الله موتوا﴾ أي لكم الموت بجبنكم يعني يغلبكم العدو وتحرمون من حياة الفتح والظفر على العدو﴿ثم أحياهم الله﴾ أي نشأ فيهم روح العزم والثبات حتى استعدوا للقتال فرزقوا الفتح والنصر اهـ .

وهكذا في قوله تعالىٰ : ﴿أو كالذي مرَّ على قرية﴾ الآية ، حاول الصرف عن الظاهر فلم يقدر إلا في لفظ واحد، راجع (ص-٢٦٩) من "ترجمانه".

و هكذا فسر قوله تعالىٰ : ﴿ فخذ أربعةً من الطير﴾ الآية، كما فسره أبو مسلم الأصفهاني المعتزلي ، كما حكاه الإمام الرازي في "تفسيره" وأشار أبوالكلام في "المنهية" على تفسيره إلى تزييف قول جمهور المفسرين راجع (ص- ٢٧٠ و ٢٧١).

و هكذا حرّف معنى قوله تعالىٰ : ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ في (ص- ٢٠٠) وغيرها من تأويلات الآيات بما لايتأولها أئمة أهل السنة وجماهير الأمة .

وكل تفسيره مشحون بأمثال هذه التأويلات الركيكة الّتي لا نفاذ لها و لا مساغ ، ومن دأبه الخاص أنه لا يلتفت قط في تفسير الآيات إلى الأحاديث والآثار ، و ينوط الأمر على كتب التاريخ من مؤرخي اليونان والفرنسا وغيرهم وإن كان مدارها على الجزاف والخرص ، ولا يلتفت إلى الأحاديث وإن كانت في الباب موجودة وكانت أقوى سنداً من تلك الآثار والكتبات التاريخية التي ليس عليها دليل و برهان ، كما قال جل ذكره : ﴿مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون﴾ ومن دأبه أنه إذا أقام رأياً في أمر فيزعمه أمراً قطعياً بحيث لا يقاومه حديث مرفوع ولا أثر صحيح ولا دراية صحيحة ، ومن دأبه أنه يعزو إلى المفسرين قولاً ضعيفاً في آية و يكون هناك أقوال قوية صحيحة غيره ، فيرد على القول الضعيف و يتمسك بقول آخر من أقوالهم ، فيصدع به مستكبراً كأنه أبو عذرته وابن بجدته وأن المفسرين لا خبرة لهم به ، وربما يستهزأ بهم متمثلاً بقول الشاعر:

نزلوا بمكة في قبائل نوفل ونزلت بالبيداء أبعد منزل

وهكذا دأبه في سائر تفسيره "ترجمان القرآن" :

وذى خطل في القول يحسب أنه مصيب فما يلمم به فهو قائله

وقد شاع له مكتوب في بعض الجرائد الأردوية وصدع فيه بأن الأمور التي

عليها مدار النجاة لا بد أن يصرح بها القرآن كصراحة : ﴿وأقيموا الصلاة﴾ بل أصرح منها ، ولا بد أن يأمر بأن يصدق به ، فكلما جاء في القرآن أمر في غير الأمور التي عليها مناط النجاة ولم يكن منتظماً في سلك العقائد فلا يلزم المرأ قبوله واعتقاده ، وقال : ومن اعتقادي أنه لا ينزل المسيح ابن مريم -عليه السلام- فكتبت إليه في ذلك : كيف تعتقد ذلك وقد صح في نزوله أحاديث وتواترت! فما قولك فيها ؟ فأجاب : "ذكر نزوله في سلسلة أشراط الساعة وليس مما يدخل في العقيدة" اهـ . و يا للعجب!! أليس التصديق بما جاء به نبينا القرشي محمد ﷺ من العقيدة ؟ فإذا جاء رسولنا ﷺ بأمر و أخبر بوقوعه وصح الإسناد واتصل به وتواتر عنه شرقاً وغرباً على ظهر البسيطة فهل ترتقب بعده في الإيمان به والإذعان له لأمر آخر حتى يأمرنا صريحاً بقوله : وآمنوا بنزول ابن مريم علا أنه لا يكفي هذا عنده في الحديث بل لا بد أن يكون في القرآن: وآمنوا بنزول عيسى ابن مريم ، أفليس يكفي قوله ﷺ : ((وكيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم)) وأيّ صراحة أبين منها ؟ وأيّ إخبار أصرح منه ؟ ومع هذا تواتر معناه ، في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل .

ولوكان الأمر كما زعم فأين الصلوات الخمس صراحةً ؟ وأين مقادير الزكاة ؟ وأين مسائل كفارة الصيام ؟ ثم وثم إلى ما يشكل استقصاءه ، أفليس اعتقاد فرضيتها من الأمور التي عليها مدار النجاة ؟ أوليس يكفر من أنكر فرضيتها ؟ قال شيخنا إمام العصر- رحمه الله - في رسالته "إكفار الملحدين في ضروريات الدين" : وإذا علمت هذا فنقول : الصلاة فريضة ، واعتقاد فرضيتها فرض ، وتحصيل علمها فرض ، وجحدها كفر ، وكذا جهلها كفر ، والسواك سنة، واعتقاد سنيته فرض ، وتحصيل علمه سنة ، وجحودها كفر، وجهله حرمان، وتركه عتاب أو عقاب ، اهـ .

وإنما أطنبت وأسهبت في غير ما كنت أحاوله من أول الأمر إعلاناً بما بدا لي من الكدر في تفسيره والتدليس البيّن، ولم يكن عندي من الدّين لو كنت أغمض وأضرب عنه صفحاً، فإن سموم الإلحاد قد هبت في الهند وعمت أرجاءها القاصية، وأصبح اليوم مناط فهم القرآن المجيد على أمثال هذه التفاسير لتعبيراته الرائقة العصرية، فقلّما سلم منه أحد إلا رجل أعطاه الله علماً صحيحاً، أو تزكى نفسه بأنفاس الذين لصحبتهم تأثير عظيم في إصلاح النفوس، فثلج صدره بما جاء به النبي عليه الصلاة والسّلام، ولم يحكم فيه رأيه الضئيل الواهي، وقد شرع أحد من علماء الفنجاب من أهل الحديث[١] في تأليف تفسير في الرد على "ترجمان القرآن" وطبع منه جزء لم أوفق بعد لمطالعته، وأظن أنه أشبع في الرد عليه، و ياليت لوكان أبو الكلام ذا علم صحيح مولعاً بالدين الذي جاء به محمد ﷺ يكاد يُعدّ من أعاظم رجال الدورة الحاضرة الذين يتباهى بهم العصر، ولكان له في القلوب مكانة، غير أن محبة الدين أعلق بقلب المؤمن من محبة أبي الكلام، فلا بد أن تصان الشريعة من الوسخ الذي يحط من قدرها عند أولي البصائر النافذة وأصحاب العقول السليمة، وفق الله الأمة كلها إلى الصواب وهداهم إلى سوي الصراط.

---

(١) وهو العالم الفاضل إبراهيم السيالكوتي. منه

عناية الله المشرقي وتفسيره "التذكرة"

ومن تفاسير أهل الباطل تفسيرٌ لعناية الله المشرقي الأمرتسري سماه "التذكرة" ، وحال الرجل أشهر من نار على عَلَم ، و هو على طريقة السيد أحمد خان الذي ذكر حاله في هدم أصول الإسلام ، واتفق رأيه مع رأيه حدو القذة بالقذة في أكثر أصوله سواءً بسواء، ولما ألف تذكرته هذه وطبعها ورآها علماء الحق أكفروه بالإجماع لم يتخلف عنهم أحد من أهل الحق ، وهذا الملحد زاد نغمةً في الطنبور فقال : إن الإسلام والصراط المستقيم الانتفاع بنعم الله تعالىٰ في الدنيا، فكل من انتفع بها فهو مسلم ، ومن حرم منها فهو كافر ، وقال في تفسير أصحاب الجنة وأصحاب النعيم : الذين يسمون أنفسهم اليهود والنصارى ، وقال في تفسير أصحاب النار وأصحاب الجحيم : الذين يسمون أنفسهم بالمسلمين ، واستدل بقوله تعالىٰ: ﴿إن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ أن أهل الحكومة من النصارى هم الصالحون ، فإنهم ورثوا الأرض و ولوا حكومتها.

وهذا الملحد ليس عنده صراط ولا حساب ولا كتاب ، وليس عنده نشور ولا جنة ولا نار، يستهزأ بالجنة وبحورها وقصورها ، والمراد عنده بالذين أنعم الله عليهم أهل السلطنة والحكومة ، وهم المراد عنده في قوله تعالىٰ: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ وكل قوم ليس لهم حكومة ودولة فهم عنده هم الضالون ، وهم الذين غضب الله عليهم ، حتى قال هذا الملحد : إن النصارى مع قولهم بالتثليث

هم المسلمون، وليس الكفر عنده والإسلام بالعقيدة والقول بل بالعمل فقط ، وليس بناء الإسلام عنده على الدعائم الخمس المذكورة في قوله عليه الصلاة والسلام : ((بني الإسلام على خمس)) بل سوّلت له نفسه وشيطانه ، فاخترع عشرة أمور غيرها ، وليس الصلوات وأعمال الدين وشعائر الشرع مما يكون عليه المدار عنده ، نعم ربما يلبِّس في كلماته بذكر الجنة والنار، وهو تلبيس وتدليس لم يؤمن بها قلبه حيث يذعن بما يخالفه ، وغير ذلك من الهذيانات الشنيعة ، و بالجملة : وجوه كفر الرجل أكثر من أن تستقصى في هذا الموضع. وأسس لجنةً باسم "خاكساران" ودعا الناس إلى مساعدتها والشركة فيها ، وأسسها على مكائد خفية ليس هذا موضع بيانها ، والله الهادي إلى الحق .

تذييل للتنبيه على عدة تفاسير مطبوعة

قد ظهرت عدة تفاسير في هذه الأعوام الأربعين بعد طبع مقدمتي "يتيمة البيان" أريد أنها ألفت حديثاً لا أريد طبع كتب ممن سلف وألف قديماً كـ "تفسير القرطبي" أو " تفسير القاسمي" بدمشق وغيرهما ، فليس الغرض التبصرة على مثلها ، وإنما الهدف النقد والتبصرة على تفاسير أهل العصر ، فمنها : ما هو لأرباب العلم والدين والتقوى ، ومنها : ما هو لمن له إلمام بالعلم ، وليس له رسوخ فيما يحتاج إليه المفسر، أو هو لأهل الهوى ، فيكون في الصنفين الأخيرين مؤاخذات وتنبيهات ومناقشات ، وربما تكون هناك أبحاث خرجت من الجادة القويمة والصراط السوي ، وأنا آسف على أنه أريد طبع "اليتيمة" وإعادتها بحذف وإثبات ، وصحتي لا تتحمل بسط القول وإيضاح البيان ، فاضطررت إلى الاقتناع بإشارات ، وربما تكفي العاقل ، والله الهادي إلى الصواب .

الأول: معارف القرآن : للأستاذ الكبير المفتي الأكبر مولانا الشيخ محمد شفيع الديوبندى -طالت حياته المباركة في عافية - في ثماني مجلّدات ، مأخذه "بيان القرآن" لحكيم الأمة الشيخ التهانوي ، فلخّصه في عبارات واضحة ، وزاد عليها مسائل وأبحاثاً يحتاج إليها العصر الحاضر ، ولسنا نحتاج إلى الثناء على الكتاب ، فأصبح خير تفسير يستفيد منه عالم وغير عالم .

والثاني : معارف القرآن : للأستاذ الكبير العلامة المحدث مولانا الشيخ محمد إدر يس الكاندلوي -رحمه الله- وصل إلى آخر الفاطر ، وتم منه الطبع إلى الحجر ، فتفسير جليل تجد فيه نقولاً جيدةً نفيسةً ، كلاهما باللغة الأردية الهندوستانية الرائجة في هذه البلاد .

والثالث: تفسير للأستاذ عبد الماجد الدريابادي : بالأردية ترجمة للقرآن وعليها فوائد يلتقط فيها من تفاسير باللغة العربية عباراتها وألفاظها ، وربما يجمعها في صعيد واحد بكثرة ، وفيها من أبحاث تتعلق بالعلوم الجديدة والاكتشافات الحديثة من أسفار ألفت باللغة الإنجليزية ، وأبحاث تاريخية جيدة وأسلوبه أسلوب الأناجيل والعهد العتيق والكمارى والتلمود ، غير أن المؤلف ليس له رسوخ في علوم الدين ولا إلمام بالعلوم العربية من صرف ونحو وبلاغة إلا قليلاً ، ولا تصلب في المعتقد ، فلا يطمئن به كل الاطمينان ، ويحتاج إلى أن يقوم عالم من علماء أهل الدين بمطالعته مطالعةً حرفيةً من البداية إلى النهاية و يبدي رأيه فيه حتى ينبلج الصبح للناظر ين.

والرابع : تفهيم القرآن للأستاذ المودودي والكلام عليه : لاشك أن مؤلفه صحافي قدير باللغة الأردو ية وله ملكة الصحافة الموهو بة ، وله أسلوب بديع في الإنشاء ، وقلم سيال في تحليل أجزاء الموضوع يستجلب أنظار العامة و يستلفت أفكار الجيل الجديد ، وربما يأتي بتفكير جديد في الأبحاث ، بيد أنه بالأسف الشديد مؤلفه ليس له رسوخ في علوم الدين ولا قدم راسخ في علوم البلاغة وعلوم العربية ، فقيّد الذوق بالحوار العربي البليغ ، دائماً يبني على أنقاض غيره ، ولكن لما ير يد تعبيره بأسلوبه يخرج عن الجادة و يتجاوز الصواب ، وإعجابه بالرأي ربما يلعب بقلمه ما يكون وصمة عار وجهل أبد الآبدين ،

وتظاهره بالتحقيق في كل شيئ مع كونه مسكيناً في كل فن غير قدرة الإنشاء والتحر ير بالأردية وازدراؤه بكل من سلف أصبح شيئا لكتبه وكتاباته ، فتفسيره فيه مؤاخذات وانتقادات وملاحظات ومناقشات ، وهذه الرسالة لا تتسع ساحتها للبحث وتقديم الأمثلة ، ولكن نقتنع ببعض أمثلة كبرض من عدّ .

نماذج من تفسيره و آرائه الخاطئة فى تفسير القرآن

منها : ما يقول في آيات غزوة أحد في آل عمران (٢٨٨-١) الطبعة الخامسة : إن كل بيئة وجد فيها الر با تحدث فيها أدواء خلقية من الحرص والطمع والبخل وإيثار النفس والبغض والحسد والتنافر والغضب ، فالذين يعطون أموالهم بالر با يحدث فيهم الحرص والطمع والبخل ، والذين يأخذون الأموال بالر با يورث فيهم الحسد والبغضاء والتشاحن ، فهم صنفان ، فكان من جملة الأسباب المؤثرة في هزيمة المسلمين وجود هذه الأدواء فيهم.

انظر هل أشار القرآن الكر يم إلى شيئ من هذه الأدواء بأنها أثرت في هزيمتهم والله سبحانه يقول : ﴿لقد صدقكم الله وعده حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون﴾ و يقول عزوجل : ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلّهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم﴾ الآية ، فأين هذا من ذاك ؟ هب أن الشباب عصوا أميرهم وتأولوا في كلامه وآثروا أن يساهموا في الغنيمة ، فهل هذا كان من حرصهم وشحهم وحسدهم و بغضهم ؟ وهب أن الر با لم تنزل حرمته بعد ولكن بعد قبولهم الإيمان بإخلاص تؤثر في طبائعهم هذه الرذائل الذميمة ؟ دعني من هذا فهل الله سبحانه أشار إلى مثله ؟ وهل معنى ﴿بعد ما كسبوا﴾ هذا الذي يقوله الأستاذ المودودي ؟ كأن الأستاذ ينتظر فرصةً تسنح في حق الصحابة الأبر ياء فينتقم منهم و ينزل

عليهم باللعن والو يلات ، و يترقب بالمرصاد للطعن فيهم ، هداه الله عن ز يغه المبين ، ورضي عن الصحابة أجمعين .

ومن العجب المدهش أنه لما قرأ "ظلال القرآن" للسيد قطب وقرأ فيه عدة صفحات في صدد تفسير آيات غزوة أحد وما عقّبها من آيات التنزيل الكثيرة من آية ١٢١ إلى آية ١٨٩ أر يد أنه فسر ٥٩ آية من التنزيل في صعيد واحد ، يهدي لطائفها وحقائقها ، وتناسقها وارتباطها ، واتصال بعضها ببعض ، ولما جاءت آية: ﴿ولا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفةً﴾ في أثناء آيات غزوة أحد بعد آيات ثم جاءت في تفسيرها الكلمات الآتية : ولعل مما يلفت النظر في التعقيب القرآني على أحداث المعركة هو ذلك الازدواج العجيب بين استعراض مشاهدها..... و بين التوجيهات الأخرى المتعلقة بتصفية النفوس..... وتحر يرها من ر بقة الشهوات ، وثقلة المطامع وظلام الأحقاد..... وضعف الحرص والشح والرغبات الدفينة .

وقال في ضمن تفصيل طو يل : وكذلك هي ذات ارتباط وثيق بالأوضاع التنظيمية التي تقدم عليها حياة الجماعة المسلمة وفق منهج الله القو يم ، المنهج الذي يقوم على الشورى في الحياة كلها لا في نظام الحكم وحده ، وعلى النظام التعاوني لا النظام الربوي ، والتعاون والربا لا يجتمعان في نظام اه ، إلى أن قال : ومن ثم عرج على الربا فنهى عنه ، وعرج على الإنفاق في السراء والضراء ، وعرج على طاعة الله ورسوله فجعلها مناط الرحمة ، إلى أن قال : والمجتمع التعاوني أقرب إلى النصر من المجتمع الربوي ، وكظم الغيظ والعفو من عدة النصر إلخ .

فانظر يا رعاك الله أين هذا الكلام البليغ من ذاك الكلام السمج الثقيل على الأذهان قبل الآذان ؟ فالأستاذ المودودي لم يصل إلى مغزى كلام القطب ، وذهب وهله إلى ما قال ، وتحدث بحدسه الخاطئ أن تلك الأدواء الخلقية كانت في

الصحابة وأثرت في الهزيمة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، فقل لي: بالله عليك! رجل بضاعة علمه ما رأيت ، وفهمه بالقرآن مادر يت ، فهل مثل هذا الرجل يستحق أن يؤلف تفسيراً للقرآن العظيم ، وأنا أدري أن الموضوع غني غاية الغنى ، وقد ألف تفاسير قبله في هذه البلاد باللغة الأردو ية وفيها مثل أبي الكلام أحمد مَن هو أقدر على الأدب باللغة الأردية من الأستاذ المودودي وهو متطفل على مأدبته الأدبيّة وسماه "ترجمان القرآن" والأستاذ المودودي يستفيد منها و يكتب ما يكتب على ضوئها ، بيد أنه يحاول أن يسبقهم إبداعاً وإنشاءً ، و يعجب أن ينفرد بتحقيق لم يسبق إليه حتى يكون سباق غايات ، وفعلاً انخدع به رجال ، ثم لا يكون فيه كفاءة لهذا السبق ، فيقع في أعمق هوة من الجهل أو الضلال ، وربما يقلده في ضلال وخطأ ، فيضل التابع والمتبوع.

ومنها : قوله في تفسير السماوات (٦١-١) الطبع الخامس في سورة البقرة ما ترجمة لفظه : إن حقيقة السماوات السبع وتعينها أمر مشكل ، حيث إن الإنسان قد اختلف آراؤه في كل دور في السماء ، أو بلفظ آخر : بشيئ فوقه ما وراء الأرض ، فهو بمشاهدته وقياسه يتصورأموراً لا تزال تتغير دائماً مستمراً ، فلا يلائم أن يرتكز فكر المرء على واحد من تلك التصورات ويجعلها محطاً لفهم القرآن ، بل يكفي بالإجمال أن يقال : إن ما وراء هذه الأرض من الكائنات قد قسمها الله سبحانه في سبع طبقات محكمة ، أو يقال : إن هذه البسيطة الواقعة في إطار تلك الكائنات قسم الله تلك الكائنات إلى سبع طبقات اهـ .

قوله هذا يدل على أنه لا يؤمن في السماوات السبع بما نص الله سبحانه في التنزيل العزيز من بيان صفاتها وأبوابها ، دع آراء الإنسان والأفكار البشرية واختلافها ، ما ذا الذي أثبته القرآن الكريم في نصوصها الصريحة الواضحة !

أليس يقول الله سبحانه : ﴿فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها﴾ في سورة فصلت ؟! وما الذي أثبته نصوص الأحاديث المتواترة و خصوصاً أحاديث المعراج المقطوعة من بيان كيفيتها ووجود الملائكة فيها وما إلى ذلك في شؤون إلهية ونظام سماوي بديع ، دعنا عن فلسفه الإغريق وعن فلسفة أوربا، ودعنا عن العلوم الطبيعية وعدم وصول أنظارها إليها وحتى ما وصل إدراكهم إلى تلك النجوم الثاقبة المعلقة في جوّ السماء على الرغم من الوصول إلى كرة القمر ، وإنزال الطائرات على كرة المريخ ، تحيروا واندهشوا في سعة هذه الكائنات الجوية !! و منها : ما لاتصل أنوارها إلى بسيط الأرض في ملايين من السنين ، وكل هذه المصابيح المبصرة وغير المبصرة تحت السماء الدنيا .

فانظر يا رعاك الله ! ارتفاع القبة الخضراء ! كيف رفع سمكها ! فانظر إلى قول الله عزوجل : ﴿أ أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسوّاها﴾ (النازعات) وقال عزوجل : ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت﴾ (الغاشية) ولعدم وصول العقول والإدراكات إليها زعموا أن كل ذلك منتهى مرأى العيون ومنظر رائع في المرائي مالها حقيقة ، ولا ريب أنهم كذبوا وخابوا وخسروا ، والقرآن العظيم صرح بوجودها وصفاتها و بينت أقوال سيدنا الرسول عليه صلوات الله وسلامه المقطوعة المتواترة تفاصيلها وشؤونها ، وإنها مساكن الملائكة الربانية ، وفوقها عرش الرحمن جل جلاله وتعالى الله عن مستقر مادي يحتاج إليه ومقرّ يأوي إليه ، وهو الصمد لم يزل ولا يزال ، وهو الخالق المتعال .

وبالجملة : السماوات مخلوقة موجودة ، والآيات البينات مقطوعة ، والإنكار عنها تكذيب للتنزيل العزيز ، وتكذيب للرسول عليه صلوات الله

وسلامه ، والإيمان بصدق القرآن وصدق الله وصدق الرسول من ضرور يات الدين ، والتأو يل في مثلها يرادف الإنكار ، فما يقوله الأستاذ في "التفهيم" يوهم الإنكار عن وجودها وعدم الاطمينان بما أثبته القرآن والحديث والشريعة ، كل يصرح بوجودها وحقيقتها ، فالاقتناع بقول : إن تعينها أمر مشكل و آراء الرجال مختلفة ، أية حاجة لمثل هذا الكلام السقيم، وأية منزلة لآراء الرجال أمام صرائح التنزيل وقواطع الحديث الجليل ، فليزن الناظر المنصف هذا التفهيم الخاطئ أمام هذا المقطوع الواضح .

ثم إنه لما قرأ في "ظلال القرآن" (٦٢-١) من الطبعة الخامسة : ولا مجال للخوض في معنى الاستواء ، إلا أنه أمر من السيطرة والقصد بإرادة الخلق والتكوين ، كذلك لا مجال للخوض في معنى السماوات السبع المقصودة هنا وتحديد أشكالها وأبعادها اكتفاءً بالقصد الكلي من هذا النص، وهو التسوية للكون ، أرضه وسمائه ، في معرض استنكار كفر الناس بالخالق المهيمن المسيطر على الكون إلخ ، وهذا الكلام في مثل هذا المحل و إن كان قاصراً بيد أنه كلام لا غبار عليه غير التقصير ، فالأستاذ صاحب "تفهيم القرآن" كأنه لم يدرك مرماه ، و أراد أن يسبقه في المقال ، وقال ما قال وقارب الضلال ، فارجع البصر كرتين تجد الفرق البيّن بين القولين ، وقارن بين الكلامين ، و بالجملة : كلامه هنا يدل على أنه لم يطمئن بما في القرآن قلبه ، ولا ثلج بما في الحديث صدره ، فرحم الله من أنصف ولم يتعسف ، وأكثر القارئين بشخصية الرجل لا تصل أفهامهم إلى هذه الحقائق و إلى تلك العواقب الوخيمة التي تتسرب في خفاء فضلاً عن الجيل الجديد المغرمين بالتعبيرات الطلقة ، مع أنها لا تتجاوز عن أن يكون بقبقة في زقزقة ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

ومنها : قوله في سورة البقرة في قوله تعالىٰ : ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ فيقول : إن كيفية الرفع المفصلة مشكلة بل يعلم بالإجمال : أن عند أخذ الميثاق في سفح الجبل أُنشِئت صورة هائلة علموا منها أنه يكاد يسقط عليهم الجبل إلخ ، هذا ذوق معتزلي كأنه ينكر الرفع الحسي الحقيقي ، ويمثل صورة هائلة هناك مع أن الله سبحانه صرح في الأعراف بقوله : ﴿وإذا نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم﴾ الآية ، وبعد هذا النص الصريح و وقوع لفظ : "نتقنا" كيف يمكن هذا التأويل الاعتزالي ؟!.

و يقول الإمام الراغب الأصفهاني في "مفرداته" : نتق الشيئ جذبه ونزعه حتى يسترخي قال تعالىٰ : ﴿وإذ نتقنا الجبل﴾ إلخ ، وهنا أيضاً لم يدرك مغزى قول صاحب "الظلال" في تفسيره (٩٩-٩) : إنه ميثاق لا ينسى فقد أخذ في ظرف لا ينسى ! أخذ وقد نتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة فأعطوه في ظل خارقة هائلة كانت جديرة أنْ تعصمهم بعد ذلك من الانتكاس ، ولقد أروا في ظل تلك الخارقة القوية إلخ ، وكلام صاحب "الظلال" في الظلة ليس يخرجها عن معناها المتعارف و يسميها خارقة هائلة ، فحرّفها المودودي وترجم الخارقة الهائلة بالصورة الهائلة استبعاداً لرفع الجبل كما سبقه إلى ذلك التحريف الأستاذ أبو الكلام آزاد في "تفسيره".

ومنها : قوله في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً﴾ الآية (٥٥٦-١) من "التفهيم" من الطبعة الخامسة ما لفظه مترجماً إلى العربية ، بيّن في هذه الآيات حال سيدنا إبراهيم - عليه السلام- وما وصل إليه بتدبره قبل تشرفه بمنصب النبوة ، فقد اتضح أن من كان سليم الفطرة وفتح عينيه في بيئة وثنية وكان غير ممكن أن يتلق التوحيد ، فهو أخذ يفكر في هذه الكائنات وآثارها

و يصل مستدلاً بها إلى الحق ، ثم يقول ما ملخصه : إن هذه المنازل والمراحل من الحيرة والتردد جاءت في البين وسط مراحل السفر ، فلا عبرة للمسافر في الإقامة في هذه المنازل ، حيث إن محطّ الرحل بعده هو الوصول إلى التوحيد ، فالعبرة للنهاية لا للبداية ، والعبرة لما حصل عليه القرار لا ما جاء في الوسط من غير انتهاء السير ، إلى آخر ما قال.

وفيه مؤاخذات وأخطاء في هذا التعبير والتحرير :

أما أوّلاً : فإن كل نبي أو رسول مفطور ومخلوق على عقيدة التّوحيد الراسخ في قلبه و يكون مطمئناً بها ، وغير ممكن أن تمضي عليه لمحة في حياته من غير إيمان بالوحدانية ، ولا يمكن التردد أو الحيرة للنبي في التوحيد. و ((كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه)) فإذا كان هذا حال عامة من يولد فما ظنك بمن يولد ليكون نبياً ورسولاً ؟! فالإيمان بالله وحده من خلق فطرته ولا يحتاج فيه إلى استدلال بل يهتدي إليه بفطرته التي خلقه الله عليها قبل كل استدلال وتفكير ، وهذا هو الحق عند أرباب الحق ، نعم ! يمكن أن يرتقي بالاستدلال والتفكير والخوض في ملاحظات الكائنات والنظام البديع الساري في الكون من اليقين إلى عين اليقين ، ومن عين اليقين إلى حق اليقين ، كما يوضحه سؤال سيدنا إبراهيم عليه صلوات الله وسلامه عن الله سبحانه و تعالى : ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى﴾ .

و أما ثانياً : فكلام الأستاذ المودودي صريح في أنه مرّ سيدنا إبراهيم من مراحل الحيرة والتردد في التوحيد حتى وصل بعد الاستدلال ، واهتدى إلى الحق بعد طي هذه المنازل التي لا بد منها للسائر في سيره والمسافر في سفره ، ومثل هذا الرأي خطأ وضلال في حق الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه ، وأنا

أدري أن الأستاذ المودودي اقتدى بالقطب في "ظلاله" ولكنه لم يهتد لحق مقاله ، وإن كان وقع نحو قصور في تعبير صاحب"الظلال" أيضاً ، وعصمة الأنبياء من الشرك والكفر كلمة اتفاق و إجماع في الأمة المحمدية قبل النبوة وقبل البلوغ ، فليس من الممكن أن يتردد في التوحيد ، أو يبقى في الحيرة ، أو يستفهم أحداً ، أو يستدل له بشيئ ، فلا يمكن في حياته لمحة من الوثنية والشرك وإن كان عارضاً غير مستقر وفي البين وفي وسط السير .

وأما ثالثاً : فكلام سيدنا إبراهيم عليه السلام كان من قبيل المجاراة مع الخصم تبكيتاً لأهل الشرك ، وإقامةً للحجة على المنكرين، وتنبيهاً لطيفاً على ضلالهم ، وإنقاذاً لهم من مزالقهم ، وهو طريق أهل البلاغة والدعوة بالحكمة ، لا أنه كان نفسه في الحيرة والشك وعدم الاهتداء إلى الحق حتى يقال : لا بد للسائر من المرور من هذه المراحل حتى ينتهي إلى المنزل.

و بالجملة : فهذه نماذج من المؤاخذات ، وربما يشتد النقد في بعضها حيث خروجها عن الجادة القويمة المستقيمة ، وإنما الغرض هنا ومضات خفيفة من الصواعق ، والله ولي التوفيق إلى الهداية .

ومن معايب كتبه وكتاباته أنه ربما ينبه أحد من العلماء على أنه زلّ قلمه وقدمه في كذا وكذا فيتنبه أنه أخطأ ويحاول أن يصلحه فيغير تعبيره كأنه رجع عنه، أو يغيره كأنه يؤوّله ، و يأتي في الطبعات اللاحقة بتغير أو تعديل أو إصلاح ولكن لا يعلن برجوعه و بتغييره ، فالطبعات السابقة التي وصلت بأيدى الناس يقرؤونه كما هو من غير أن ينتبهوا للإصلاح والتغيير فيبقون في ضلالهم ، و يا ليت لو أعلن وأيد خطأه لجلت منزلته في عيون الناس ، ولعفا الله عنه عما سلف ، ولكن بالأسف الشديد إنه لا يبدي ولا يعلن كأنه لم يخطئ.

ومن أمثلته : أنه في حق سيدنا يونس عليه صلوات الله وسلامه ذكر أنه وقع منه تقصير في القيام بفريضة النبوة حيث لم ينتظر حكم الله فأبق ، وكان كلاماً غير مستساغ ، فنبّه القوم على الخطأ في القول ، فإن النبي إذا قصر في أداء منصب النبوة فكأنه لم يكن أهلاً للتشرف بهذا المنصب العظيم ، ومن نتيجة ذلك أن الله تعالىٰ كان مقصراً في هذا الاصطفاء والاجتباء ، فكان علم الله غير محيط وغير صحيح ، فبعد ما نبهه القوم غيّر تعبيره ولم يعلن ، فبقي في الطبعة الأولى ، وكذلك في رفع سيدنا عيسى عليه صلوات الله وسلامه إلى السماء حياً بجسده الشريف غيّر عبارته هكذا ، وهكذا له أمثلة ، والله يهدينا وإياه .

والخامس:تفسير تدبر القرآن والكلام عليه : باللغة الأردوية للشيخ أمين أحسن الإصلاحي ، والمؤلف معروف بتآليفه وكان من أعزّ رفقاء الشيخ المودودي وممن كان ينتصر له انتصاراً وفارقه بعد برهة طويلة من رفاقته نحو عشرين عاماً وأمارته في الجماعة ، وكان سبب اعتزاله عنه الخلاف معه في مسألة تبديل الأحكام الشرعية حول المصلحة والحكمة العملية ، حيث إن الأستاذ المودودي صرح واعتقد بأن مقاصد الإسلام الأساسية صنفان : صنف لا يدخله التغير والتعديل مثل العقائد كالتوحيد والرسالة ، وصنف يدخلها التغير عند اقتضاء المصلحة والحكمة ، قال: وله نظائر في الشريعة أكثر من أن تحصى .

ومنها : أن الرسول عليه صلوات الله وسلامه أعلن بأن الأئمة من قريش، وترك ما نصّ القرآن به من المساواة بين أفراد الشعوب في قوله تعالىٰ :﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (الحجرات) ، وقد انتقدت كلامه هذا أشد الانتقاد في رسالتي : "الأستاذ المودودي وشيئ من حياته وأفكاره" فليراجع إليها لمزيد البيان .

والأستاذ المودودي كان بدأ بتفسيره : "تفهيم القرآن" فأراد الأستاذ الإصلاحي أن يؤلف تفسيراً حيث يظن أن الأستاذ المودودي ليست فيه كفاءة من ناحية علوم العربية والبلاغة، والأستاذ الإصلاحي فاق عليه في هذه الخصائص، فبدأ يؤلف تفسيراً سماه "تدبر القرآن" و وصل فيه في ثلاث مجلدات ضخمة إلى سورة بني إسرائيل، وكنت أرجو أن يكون تفسيراً سليماً من مؤاخذات وملاحظات، وبالأسف لما راجعت إليه وتصفحت أوراقه من غير استيفاء للمطالعة صادفت فيه أموراً مخالفةً لجمهوز المفسرين وأئمة أهل السنة والجماعة، فخاب أملي ورجائي، و كدرت المسرة المرجوة، وكنت أرجوها صفواً غير مشوب بنغص وكدر.

فخالف الجماهير في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ وفى قوله تعالى: ﴿فقلنا اضربواه ببعضها﴾ وفي قوله : ﴿وجد عندها رزقاً﴾ وفي قوله :﴿و إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ فراجع (١٩٩-١) و (٢٠٥-١) و (٦٨٠-١) و (١٩٥-٢) فخابت ثقتي به، ويحتاج إلى استيفاء مطالعته بنخل وبحث، ولو يراجع المؤلف بنقد نزيه وبحث هادئ ربما رجع عن أقواله، والله الهادي إلى الحق.

والسادس : تفسير سيد قطب في ظلال القرآن :ولاريب أن المؤلف له براعة في الأدب، وملكة موهوبة في صياغة أسلوب أدبي جديد، وله مقدرة فائقة في حسن التصوير، ولكلامه روعة وجمال، وموفق إلى حد كثير في بيان تناسق الآيات وارتباط بعضها ببعض، وعرض آيات في صعيد واحد بحسن التناسق وشدة العلاقة بين بعضها ببعض بحيث يُحسّ أن كل آية آخذة بالسابقة والتالية من غير تفكيك وانتشار، وهذه الميزة لتفسيره لاريب فيها أنه يشكر عليها و يقدر

تقديراً عند الباحث النظار ، وأدركت أنه يريد أن يقدم القرآن بروح نقية طاهرة إلى الأمة ، غير أني رأيت تقصيراً من جهات ، وربما توهم الخروج عن الجادّة .

وأنا آسف أني لم أتمكن أن أوغل في البحث، ولم أنتهز فرصةً للنخل ، وإن بحوثه في كتابه "العدالة الاجتماعية" وخصوصاً فيما قال في حق سيدنا عثمان : إنه كان سيقةً لمروان يسوقه كيف يشاء ، وأنه كان يعزل أصحاب رسول الله ﷺ ويولي أعداء رسول الله ﷺ ، وأن عهده فجوة في الخلافة ، وما إلى ذلك من طامات في حق خليفة راشد ذى النورين مثل سيدنا عثمان مع كثرة مناقبه في كلام الرسول عليه صلوات الله وسلامه ، وهو الذي جرّأ الأستاذ المودودي في كتابه "خلافة وملوكية" بطاماته ، فبحوثه هذه جعلتني غير مطمئن بأبحاث تفسيره وعدم الثقة بتحقيقاته على الرغم من تهافت الشباب الأدباء العصريين عليه وكونهم مغرمين به ، ولا ريب أن تفسير القرآن والقيام بحقه أمر في غاية الصعوبة والدقة ، هذا ما أقوله أداءً لوظيفة الدين مع تقديري لجهوده في القيام لإقامة نظام صالح بإخلاص وما كانت عاقبته من مقاسات آلام في ذلك وخيبة وحرمان حتى ضحّىٰ بنفسه، فجزاه الله وأحسن إليه بتلك الجهود وتضحية النفس، والله الموفق.

البحث عن وجوه إعجازه وما وقع به التحدي
و بيان الأعنى في ذلك

قد خرجت و بعدت عما كنت بصدده ، والآن أعود لما كنت حاولته ، والعود أحمد ، وموضوعي هذا هو أهم من سائر المواضيع المتقدمة بل هو روحها ، فليعلم أني قد أوضحت فيما سلف أن للقرآن المجيد جهات للتفسير شتى ، ومن الرجال من أخذ منها بسهم وفاز فيها بالقدح المعلّى حسب الأدوار العصرية ، ولا ريب أن كتاب الله أكبر معجزة في العالم يبقى إعجازه على تطور الأطوار وتكور الأكوار تُحدِّى به خطباء العصر ومصاقع العرب ، و دعوا إلى مباراته ومجاراته إنسهم وجنهم ، فخرست مقاولهم ، وذهبت شقاشقهم ، وأنت تعلم أن العرب كانوا بمكانة من البلاغة بعيدة ، فلهم القصيد العجيب ، والرجز الفاخر ، والخطب البليغة المطنبة والموجزة ، والأسجاع الرنانة ، والمنظوم المرصع ، والمنثور الرائق، فعجزوا وخابوا ، وقطعت أطماعهم دون مناضلته ومساجلته ، فأذعنوا له عملاً وقولاً واعتقاداً ، وأصبح عجزهم بحيث لايرتاب فيه ذو إربة ودربة ، وهو كما ينادي المصقع على رؤوس الأشهاد إلى بلاغة نظمه ونسقه ، وبراعة وصفه ورصفه ، كذلك ينادي على أعين الناس الحكيم والفيلسوف إلى قوانين النظام ، ونواميس التهذيب ، وأسرار الرقى ، وروح السياسة ، ودساتير الإدارة ، ودعوة

الخلق بالحكمة والموعظة الحسنة ، و يقيم براهين قاطعة في تضاعيفه وطواياه على ما يستحيله الفيلسوف الحكيم أو يستبعده بحيث عسى أن يثلج به صدره وتطمئن به نفسه إن أعطى للعقل حقه من الفكرة الغائرة ، واستمرى من طبيعته من دون ز يغ وإلحاد ، وحسد وعناد .

ولا ريب أنه كلما ازداد الدنيا ازدهاراً ورقياً في العلوم والفنون ، تزداد بدائع كتاب الله على صفحات العالم سطوعاً ولمعاناً ، ذوقاً ووجداناً ، برهاناً و إيقاناً ، وهكذا لا يزال القرآن معجزاً على تعاقب الأعصار والأدوار لا يخلق ولا يبلى، وهكذا يبقى إلى آخر المدى، ومما قلت في قصيدة لي في نعت النبي ﷺ ومديحه:

محمد جاء بالقرآن معجزةً دامت لنا روضةً مخضرةً أنفا
أحكامه الغرّ أضحت للأنام هدًى آياته أنجم تهدي الورى طرفا
ألفاظه نسقت در منضدة دقت لطائفه لا ترتجى لطفا
كالنجم إذ لمعت والشمس إذ سطعت والعين إذ نبعت والصوب إذ وطفا
فاقت حقائقه راقت دقائقه يهديك نوراً مبيناً للقلوب شفا
فاحت حدائقه ساحت عجائبه صوب درور كموج البحر مانشفا
بحر عظيم إذا ما غصته نظراً يجديك دراً ثميناً غالياً تحفا
فاقت بلاغته أعلى ذرى قلل حار العقول هنا عن كنهها رهفا

هذا ! غير أن الأقدم أن يُعرف الجهة التي يتبين بها إعجازه ، وقامت حجة بالغة ، ومعجزة ناطقة على أهل القرن الأول أولى ذرابة وسلاقة ، وفصاحة وطلاقة ، قال الإمام القاضي أبو بكر الباقلاني ، في "إعجاز القرآن" (ص-١٠) طبع السلفية : وقد كان يجوز أن يقع ممن عمل الكتب النافعة في معاني القرآن وتكلم في فوائد من أهل العربية وغيرهم من أهل صناعة الكلام أن يبسطوا

القول في الإبانة عن وجه معجزته ، والدلالة على مكانه ، فهو أحق بكثير مما صنفوا فيه من القول في الجزء(١) ودقيق الكلام في الأعراض ، وكثير من بديع الإعراب وغامض النحو ، فالحاجة إلى هذا أمسّ ، والاشتغال به أوجب ، وقد قصر بعضهم في هذه المسألة حتى أدّى ذلك إلى تحوّل قوم منهم إلى مذاهب البراهمة فيها، ورأوا أن عجز أصحابهم عن نصرة هذه المعجزة يوجب أن لا يستنصر فيها ، ولا وجه لها حين رأوهم قد برعوا في لطيف ما أبدعوا ، وانتهوا إلى الغاية فيما أحدثوا ووضعوا، ثم رأوا ما صنفوا في هذا المعنى غير كامل في بابه ، ولا مستوفى في وجهه ، قد أخلّ بتهذيب طرقه ، وأُهمِل ترتيب بيانه اهـ.

الكتب المؤلفة في إعجاز القرآن الكريم

وهذا موضوع مستقل أفرد بالتأليف قديماً وحديثاً ، وأول من صنّف فيما بلغ إليه علمي أبو عثمان الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ صاحب كتاب "البيان والتبيين" و كتاب "الحيوان" وكتاب "البخلاء" وغيرها ، ألف فيه كتابه "نظم القرآن" ، و أبان عن حاله الإمام القاضي أبو بكر في "إعجاز القرآن" بقوله : وقد صنّف الجاحظ في نظم القرآن كتاباً لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله ، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا الموضوع اهـ، ونحن لا نتهم الإمام الباقلاني في ذلك كما غمض من كلامه الفاضل الأديب الرافعي غير أنا نعذر الجاحظ فإنه أول من صنف فيه ، فله فضيلة التقدم والسبق.

ثم صنّف فيه الشيخ أبو عبد الله الواسطي المعتزلي المتوفى ٣٠٦هـ وسماه "إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه" ذكره صاحب "كشف الظنون" وابن النديم ،

---

(١) ههنا في المطبوع بياض في النسخة ويحتمل أن يكون اللفظ الساقط : الذي لا يتجزأ ، أو الجزؤ الفرد ، و يدلّ عليه اللفظ الذي يليه ، منه.

ولم نطلع إلى الآن على هذا الكتاب ، غير أن الشيخ عبد القاهر الجرجاني المتوفى ٤٧٤ هـ صاحب "أسرار البلاغة" و "دلائل الإعجاز" شرحه بشرحين : كبير سماه " المعتضد " وصغير لم ندر اسمه ، وبهذا يتبين مزيته وكفاه فضلاً .

ثم أبو الحسن علي بن عيسى الرماني المتوفى ٣٨٢هـ صنف فيه رسالةً صغيرةً تبلغ إلى نحو ثلاثين صفحةً سماه "إعجاز القرآن" ، طبعت الآن بالهند في مكتبة الجامعة الملية بدهلي ، وقد طالعتها ، وليس فيها ما يقدر في هذا العصر المحتفل بكتب القوم في علوم البلاغة ، وقد أخطأ الرّافعي في اسم المصنف حيث ذكر اسمه أبو عيسى الرماني ، وليس هو أبو عيسى بل ابن عيسى كما ذكره ابن النديم وابن خلكان وغيرهما .

ثم صنف الشيخ الإمام القاضي أبو بكر الباقلاني المتوفى ٤٠٣ هـ ذلك البحر المتلاطم والمحقق الشهير المتكلم شيخ السنة ولسان الأمة كتابه المعروف "بإعجاز القرآن" ، والفاضل الرافعي مع ثنائه عليه وعلى كتابه ومع انتفاعه عنه غضّ من قدره شيئاً ، وأنا أقول : إن له منة عظيمة على رقاب الأمة بكتابه هذا ولا سيما على الفاضل الرافعي ، فإن الباقلاني هو الذي أبان طرق الحجة ، وأوضح المحجة للأمة ، وكتابه هذا قد مضى عليه نحو ألف سنة من عهد تأليفه وهو على حاله غض طريّ لا يستغني أفاضل هذا العصر الحفيل بالعلوم المدونة والكتب المؤلفة ، فما ظنك بالأعصر التي لم تبلغ العلوم المدونة إلى هذا الحد ، ولم يتم تدوين العلوم ولا سيما علوم البلاغة التي كملت قصور حمراء بلاغتها وخضراء فصاحتها بإمام أهل الفن شيخهم عبد القاهر الجرجاني مع أن هذا من العلوم التي ما نضجت فكيف احترقت ، ثم مع ذلك كله حبّر كتابه بعبارة تطرب لها الأحلام والأفهام ، وترقص لها الأقدام والأقلام .

ومن صنف في هذا الموضوع كما حكاه صاحب "الإتقان" وصاحب "كشف الظنون" وغيرهما: الإمام المحدث الشهير أحمد بن محمد الخطابي البستي الشافعي المتوفى ٣٨٨ هـ صاحب "معالم السنن"، ثم ابن سراقة[١] والرؤياني ولعله أبو المحاسن الرؤياني من أكابر علماء الشوافع صاحب "بحر المذهب" و "مناصيص الشافعية" المتوفى ٥٠٦ هـ، والإمام الرازي المتوفى ٦٠٦ هـ، وابن أبي الأصبغ المتوفى ٦٥٤ هـ، والشيخ الزملكاني المتوفى ٧٢٧ هـ، ولعل هي كتب بعضها من بعض كما قاله الرافعي، وعسى أن يجرى مؤلفاتهم هذه على تفنن أساليب جميلة و براعة تعبيرات رائقة وإبداء وجوه من الإعجاز مسفرة ذات بهاء وجمال، ولكن الأسف أن الأمة لم تنتفع إلى الآن بكثير من هذه المعادن الثمينة والكنوز الغالية، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً، وابن النديم ذكر في "فهرسته" كتابين ما عدا هذه الكتب: أحدهما: كتاب "نظم القرآن" لإبن الإخشيد، والآخر كتاب "نظم القرآن" لأبي علي الحسن بن علي بن نصر ورسالة في إعجاز القرآن للعلامة قاسم بن فيرة الشاطبي الشافعي، ورسالة في إعجاز القرآن للمطرزي، فهذه بضع عشرة كتاباً في هذا الموضوع ما وصل إليها علمي وإحصائي من كتب القدماء والمتأخرين.

ثم جاء بعد هذه القرون المتطاولة وبعد هؤلاء الأئمة نابغة أدباء مصر وغرة كاتبي العصر الأديب الفاضل مصطفى صادق الرافعي المرحوم كان من أدباء القرن الحاضر، فألف كتابه "إعجاز القرآن" على أسلوب عصريّ بارع،

---

(١) و قد بخس الرافعي حقه بل تجاوز الحد وأسرف حيث قال في حق كتابه: علا أن كتابه لو كان مما ينفع الناس لمكث في الأرض اهـ، أقول: وكيف يحط من قدر كتاب فيه ما لفظه: اختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن فذكروا في ذلك وجوهاً كثيرة كلها حكمة وصواب، وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءً واحداً من عشر معشاره كما حكاه السيوطي في "الإتقان" والرافعي نفسه في كتابه. منه.

ففصّل بعض ما أجملوه ، وصدع بما أشاروا إليه ، وكشف عن بعض الارتقاءات العصريّة وإعجاز القرآن فيها ، وأنارَ طرفاً من أطراف ما عسى أن يكون في كلمات القوم إليه إيماض ، بيد أنه كما قال هو نفسه في الباقلاني رحمه الله : كان واسع الحيلة في العبارة ، مبسوط اللسان إلى مدّى بعيد ، يذهب في ذلك مذهب الجاحظ ومذهب مقلّده ابن العميد على بصر وتمكّن وحسن تصرّف اه ، رجل جاحظي الأسلوب ، يتغلغل في أعماق التعبير والتحبير ، و يرقص قلمه في بيداء الإنشاء في هزة وهباب ، وكأنه يحاول أن يُعترف ببلاغته قبل أن يُعترف ببلاغة القرآن ، و يترسل في العبارة ما يكاد يختلف فيه الحابل والنابل ، وقد استفاد كثيراً من ابن الأثير في "المثل السائر" ولم يصرّح به ، ومع هذا فلا أنكر فضله وما لكتابه وإنشائه منزلة في القلب عظيمة ولكن أودّ أن لو شمّر أحد من أدباء العصر عن ساعد الهمة إلى تلخيصه في نحو ثلثه والثلث كثير ، إذن يحرى به أن يوضع هو في نصاب علم البلاغة فيجديهم نفعاً إن شاء الله تعالىٰ .

وما عدا هذه المؤلفات المفردة في هذا الموضوع رصع أحبار الأمة المحمدية درراً منثورةً وجواهر مبثوثةً لو نظمت في تأليف لكان عقداً غالياً لنحر البلاغة ، وغرةً لجبين كتب الأدب والعلم .

فمنها : ماذكره الشيخ الجرجاني في غضون كتابيه : "أسرار البلاغة" و "دلائل الإعجاز" والأمير اليماني في أضعاف كتابه "الطراز" أو ما يصدع به الإمام الرازي في كتابه "نهاية الإيجاز" و هو و إن انتقاه من كتابي الشيخ ولكن للتعبير في الحقيقة مجاز ، وما بثّه الحافظ ابن القيم في كتبه مثل "بدائع الفوائد" و "مدارج السالكين" و "كتاب الفوائد" وغيرها من بدائع أنواع الإعجاز ، وما بحث عنه أكثر المتأخرين من المفسرين كصاحب "الكشاف" و هو هادية صوارهم، و

مصباح قمة منارهم ، وكالإمام الرازي ، وابن الأثير الأديب الكاتب في "المثل السائر" وأبي سعود في تفسيره "إرشاد العقل السليم" وصاحب "روح المعاني" وغيرهم من جهابذة العلم وحذاق الفن.

وجه الإعجاز

ثم ليعلم أنهم ذكروا في وجوه إعجاز القرآن أموراً كثيرةً أكثرها صحيحة وإن كان بعضها فوق بعض ، وأبطل الوجوه عندي ما قاله النظام : إن إعجازه بالصرفة يعني أن الله صرف العرب قدرتهم عن معارضته وسلب عقولهم وإن كان مقدوراً في نفس الأمر بيد أنه عاقهم هذا العائق الخارجي ، ومن ثَمَّ أصبح معجزاً ، و بلائه لا يفتقر إلى تنبيه ، فإن مفاسده كثيرة ظاهرةٌ ، ثم إن الإمام القاضي عياض المالكي أرجع تلك الوجوه الصحيحة إلى أربعة أنواع:

الأول : حسن تأليفه ، و التئام كلماته ، و فصاحته ، و وجوه إعجازه ، و بلاغته الخارقة لعادة العرب الذين هم فرسان الكلام ، وتلخيصه يرجع إلى الفضاحة والبلاغة .

الثاني : صورة نظمه العجيب وأسلوبه الغريب المخالف لأساليب كلام العرب.

الثالث : الإخبار بالمغيبات ومالم يكن فوُجد كما أخبر.

الرابع : الإنباء بالقرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الدائرة مع كون من أنزل عليه أميًا لا يقرأ ولا يكتب ، وهي مما لايعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك ، انتهى ما قاله ملخّصاً .

وقد فصّل كل وجه من هذه الوجوه الأربعة بما فيه للقلوب شفاء وللعيون جلاء ، وكل ما قاله صحيح ، بل الأمر عندي كما قال ابن سراقة : إنهم ما

بلغوا إلى معشار وجوه الإعجاز وأقول : ومن إعجازه أن لا تنقضي وجوه إعجازه أبداً، فيبدو منها في كل قرن مالم يبد في القرون الغابرة :

كالبدر من حيث التفت رأيته يهدي إلى عينيك نوراً ثاقباً
كالشمس في كبد السماء وضوءها يغشى البلاد مشارقاً ومغارباً

بيد أن الذي وقع به التحدي لبلغائهم وخطبائهم ومصاقعهم وشعرائهم إنما هو نظمه البديع بفصاحته وبلاغته ، وغريب أسلوبه وبراعته ، فإنهم كانوا أرباب هذا الشأن ، وأصحاب البيان ، يعرفون هذا الأمر ذوقاً ووجداناً ، معرفةً وإيقاناً ، لم يكن عليهم فيه لبسة ، ولا يدخل عليهم فيه شبهة ، ولا يتسرّب إليهم وسوسة ، وإليه جنح الجمهور ، قال ابن عطية : الصحيح والذي عليه الجمهور والحذاق في وجه إعجازه أنه بنظمه وصحة معانيه ، وتوالي فصاحة ألفاظه ، انتهى ملخصاً.

فإذا دار الأمر على هذا فالمجال رحب ، والمسافة شاسعة ، والأعنى في خدمة القرآن المجيد هذه الجهة ، وإحكام هذا العمل إنما يتأتى كما قاله الإمام الباقلاني بعد التقدم في أمور شريفة المحل، عظيمة المقدار ، دقيقة المسلك ، لطيفة المأخذ ، ولهذا اختص بمعرفته أفذاذ في الأمة ، بل سار مسير الأمثال ما يقال : "لم يدر إعجاز القرآن إلا الأعرجان" ، أريد بهما الشيخ عبد القاهر الجرجاني صاحب "دلائل الإعجاز" والعلامة جار الله محمود الزمخشري صاحب "الكشاف" وقرن بهذه المقولة شيخنا إمام العصر فقال : "أحدهما من زمخشر والآخر من جرجان" .

وما هذا إلا من خطر هذا الأمر وبُعده عن الوصول إليه ، وكيف لا وقد حكى الباقلاني في كتابه عن الأصمعي : فرسان الشعراء أقل من فرسان الحرب ،

وعن أبي عمرو بن العلاء : العلماء بالشعر أعزّ من الكبريت الأحمر ، ثم قال الباقلاني : إذا كان الكلام المتعارف المتداول بين الناس يشقُّ تمييزه ، و يصعب نقده، و يذهب، عن محاسنه الكثير ، و ينظرون إلى كثير من قبيحه بعين الحسن ، وكثيرٍ من حسنه بعين القبح ، ثم يختلفون في الأحسن منه اختلافاً كثيراً ، وتتباين آراء هم في تفضيل ما تفضل منه ، فكيف لا يتحيرون فيما لا يحيط به علمهم ، ولا يتأتى في مقدورهم ، ولا يمثل بخواطرهم إلى آخر ما قال رحمه الله .

ذكر بعض أقوال الشيخ في هذا الصدد

ولما كان شيخنا - رحمه الله - صاحب "مشكلات القرآن" نسيج وحده ، ونظير نفسه في عصره ، نظير من نظراء أفذاذ القرون السالفة ، جمع الله له شمل المزايا التي قلّما يجتمع في أحد ، عرف إعجاز القرآن ، وثلج به صدره ، وربما كان يقول بعد حكاية المقولة السابقة : "لم يدر إعجاز القرآن إلا الأعرجان" : وأنا ثالثهما ، وكان يقول : إعجاز نظم القرآن عندي أبين من طلوع ذكاء عن مشرقها ، ليس فيه للشبهة مدخل ومساغ ، وأما الذكاء فربّما يشتبه طلوعها ، و يرى في الأفق قرصها و يكون هو انعكاس قرصها ، حيث تحقق في الفلسفة الجديدة أنه يتراءى قرص الشمس قبيل شروقها من أفقها الحقيقي بعدة دقائق ، ثم كان الشيخ -رحمه الله- يمثل هذا تقريباً للأفهام بقدح فيه درهم مثلاً وضعه بعيداً عنك بحيث لا يرى فيه الدرهم، ثم إذا ملئ ماءً يتراءىٰ لك الدرهم فيه ، فيمكن أن يقع الريب في قرص الشمس ، بيد أن إعجاز نظم التنزيل العزيز يقين لا يقربه شك ، وثلج صدر لا يخلطه حيرة ولا وهم ، اطمأن به القلب ، وقرت به العين ، فهو أبين عندي من فلق الصديع، وأوضح من شروق ذكاء .

ولا ريب أن تغلغل الشيخ من علوم البلاغة كان بمكانة شاسعة لا يدرك

شأوه ، ولا يشقُّ غباره ، فكانت البلاغة سيطت بلحمه ودمه ، وكان يقول : قد أودع الله في قلبي معياراً لمعرفة البلاغة ، فلست فيها لأحد مقلداً ، وأعطاني بصيرة أدرك بها مراتبها.

وكثيراً ما رأيته -رحمه الله- يأخذه وجد ونشاط في تعبير القرآن ، و يطرأ عليه هزة كهزة العصفور حين بلّله القطر المطور ، فكان - رحمه الله - يلتذّ بحلاوته وعذوبته ، و يسري حمياه في قلبه وروحه كما يسري الروح في البدن ، و يتحيّر من بهجته و رونقه ومائه ، وكان يقول : والأعنى في تفسّير القرآن هو الصدع بغرضه بما يقتضيه جزالة شأنه الجليل ، و يبقى نظمه المعجز على سذاجة فطرية ، و يستغني عن تكلفات وتقديرات تنافي بليغ نظمه المعجز البارع ، فإن التكلفات والتقدير في العبارات تحطه عن درجته القاصية التي ليست وراءها غاية ، ولا يتوخى بعدها نهاية :

رتب تقصر الأماني حسرى   دونها ما وراء هن وراء

و يؤيد كلام الشيخ -رحمه الله- ما قاله الزمخشري من حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز أن يتعاهد بقاء النظم على حسنه ، والبلاغة على كمالها ، وما وقع به التحدّي سليماً من القادح ، وقال غيره : معرفة هذه الصناعة بأوضاعها هي عمدة المفسر المطّلع على عجائب كلام الله ، وهي قاعدة الفصاحة ، وواسطة عقد البلاغة ، وكان - رحمه الله - يثني كثيراً على "نظم الدرر في تناسب الآي والسور" للشيخ إبراهيم بن عمر البقاعي المتوفى ٨٨٥هـ من أرشد أصحاب شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر العسقلاني ، وكان يفضله على سائر التفاسير المتداولة بين الأمة من هذه الجهة السامية ، وكان يقول : هو قد وفى حقه بما أمكن لمجهود البشر ، وكان يتمنى طبعه في حياته ، وعزم على أخذ عكسه من المكتبة

المصرية ، ولكن حال الأجل دون الأمل ، فتوفي - رحمه الله- وفي قلبه حسرة وكان كما قيل:

ولم يتفق حتى مضى لسبيله وكم حسرات في بطون المقابر

وكما قال ذو القروح الملك الضليل:

وما المرؤ ما دامت حشاشة نفسه بمدرك أطراف الخطوب ولا آل

وقال ربنا عزوجل : ﴿أم للإنسان ما تمنى فللّٰه الآخرة والأولى﴾ وقد حان لي أن أذكر كل ما كان الشيخ يذكره مما سمعته ، أو وصل إليه علمي عنه ما يتعلق بإعجاز القرآن ومزايا نظمه ، وما يلوح إلى خصائصه وآدابه في سرد القصص والوقائع ، وما كان يؤمي إلى لطائفه وأسراره حتى يتبين لك صدق ما قلته ، ولتقدر منزلة الشيخ -رحمه الله- من الخوض في مشكلات القرآن، والغوص في علومه ومعارفه ، ولتعرف مزية الكتاب الذي حاولت تأليف مقدمته ، ثم لتقابله بما بين يديك من أقوال علماء الأمة في الإعجاز وغير ذلك مما يتعلق بالقرآن لتكون على جلية من الأمر وبصيرة تدرك بها الحكم الصحيح والحق الصريح ، وموضوعي هذا أهم مما أسلفته من هذه الجهة ، فإنه دقيق المسلك ، لطيف المغزى ، غامض الكنه ، يحتاج إلى ذوق في النفس ، ودراية مع التضلع من علوم البلاغة بإمعان نظر ، وفراغة قلب ، وتلطيف للفكرة ، ولكن كان الشيخ - رحمه الله- بليغاً مولعاً بالإيجاز حتى يزعم كلامَه من لم يستأنس بتعبيراته قريباً من الإلغاز ، وقد قال علي رضى الله عنه : "ما رأيت بليغاً قط إلا وله في القول إيجاز، وفي المعاني إطالة" اهـ ، حكاه ابن الأثير .

وسمعت شيخنا العثماني صاحب "فتح الملهم شرح صحيح مسلم" أن حكيم الأمة الشيخ محمد أشرف علي التهانوي- رحمه الله- كان يقول : رب جملة

واحدة من كلام الشيخ - رحمه الله- يحتاج في شرحها إلى تأليف رسالة اهـ ، والشيخ - رحمه الله-صنيعه في ذلك كما قال ابن النديم في صدر كتاب "الفهرست" : النفوس تشرئبُّ إلى النتائج دون المقدمات ، وترتاح إلى الغرض المقصود دون التطويل في العبارات اهـ . أو كما قال الخليل بن أحمد - رحمه الله-: من الأبواب ما لو شئنا أن نشرحه حتى يستوى فيه القوي والضعيف لفعلنا، ولكن يجب أن يكون للعالم مزية بعدنا ، حكاه ابن يعيش في "شرح المفصل" وقال ابن يعيّش : إذ من المعلوم أن من كان قادراً على بلاغة الإطناب اهـ ؛ وبالجملة : لما كان دأب الشيخ إيجاز العبارة دون تمهيد المقدمات و إيضاح القول في بسط أحاول أن أسرد أقواله مع شرح ما يفتقر بعضها إلى إيضاح للغرض و بسط في الكلام في استبصار مما ذكره في بعض رسالته ، أو فهمت كلامه بتوفيق الله تعالىٰ وعونه .

قوله في وجوه إعجاز التنزيل العزيز

قال رحمه الله : القرآن الكريم كله معجز، وإعجازه عندي سار في مفرداته ومركباته ، وفي ترتيب كلماته ، وفي مقاصده وحقائقه ، فهو معجز لفظاً، وتركيباً، وترتيباً، وأغراضاً ، ومقاصد ، وعلوماً ، وحقائق .

١- إعجازه بالمفردات

قال : وأما الإعجاز باعتبار مفرداته ، فأريد به أنه إذا كان في الصدع بحقيقة أمر نزاع بين العقلاء وكانت الأطراف متجاذبةً ، وأصبحت العقول حائرةً لا تدرك الحقيقة ، ودار الأمر بين هذا وذاك ، لا ينفصل فيه الاختلاف ، ولا يهتدى إلى سبيل ، فالقرآن المجيد يختار في أمثال هذه المواضع المتلاطمة تعبيراً بكلمة مفردة لا يمكن أوفى منه بالحقيقة و أوفى بالمقام و أوفق بالغرض بحيث لو تظاهر الثقلان على أن يوردوا موضعه لفظاً غيره أقرب إلى الحقيقة وأنطق بالغرض

لخابوا و ندموا ، و ما رأوا إلا عجزاً وقصوراً ، فيستحيل أن يوفى الغرض المسوق له بلفظ آخر غيره ، فهكذا القرآن يكشف بكلمة حقيقةً غامضةً لا تصل إليها أفكارهم ، ولا تكاد تفصح عنها بكلمات ، فكيف بكلمة ؟! ولنمثله لك بمثال توطئةً للغرض قبله .

كانت العرب عامتهم ينكرون البعث بعد الموت ، و يزعمون أن الإنسان إذا مات تفرقت أوصاله، وفنيت أجزاء بدنه ، ولم يبق منه شيئ ، وقد أفصح التنزيل عن زعمهم هذا في غير موضع ، ومنه قوله تعالىٰ في " الأنعام" : ﴿وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيىٰ ومانحن بمبعوثين﴾ وغيرها من الآيات ، وفي "صحيح البخاري" من قول بعضهم :

يخبرنا الرسول بأن سنحيي وكيف حياة أصداء وهام

والصدى عندهم ماكانوا يزعمون أنه إذا قُتل رجل يخرج من رأسه طائر و يصيح : اسقوني اسقوني ، حتى يؤخذ بثأره كما في شروح "الصحيح" ومثله في "دائرة المعارف" لفريد وجدي من الصدى ، فلم يكن عندهم حساب ولا كتاب، ولا معاد ولا نشور ، وزعموا أن العالم هكذا يبقى لا يخرب ولا يبيد ، كما حكاه الصاعد الأندلسي في "طبقات الأمم" (ص-٦٨) والشهرستاني في "الملل والنحل" وغيرهما ، وعصبة منهم قالوا بالمعاد كما يكشف عنه بعض أشعار شعراء الجاهلية ، ثم القائلون بالبعث أيضاً كانوا مختلفين لم يتبين عندهم أمر تطمئن إليه نفوسهم كما قال عزوجل : ﴿فهم في أمر مريج﴾ (قٓ) ، وقال أبو الطيب :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب والخلف في الشجب
فقيل: تخلص نفس المرأ سالمةً وقيل: تشرك جسم المرأ في العطب
ومن تفكر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب

وكانت لهم للموت في الجاهلية أسماء حسب مداركهم ومشاعرهم كما سردها ابن سيدة الأندلسي في الجزء السادس من "المخصص" (١١٥-٦) وهي الهميغ (بالمعجمة، وقيل : بالمهملة) والنيط ، والزهر ، والمنون ، والشعوب ، والفود ، والحمام ، والسام ، والمقدار، وقتيم ، وجباز ، وحلاق ، والقاضية ، والطلاطل ، والطلاطلة ، والعول ، والذام ، والكفت ، والجداع ، والحزره (بتقديم المعجمة) والحتف والخالج ، واستشهد لأكثرها بأشعارهم ، وذكر التوفي في أسماء الموت ، واستشهد بالتنزيل العزيز ، فعلم أنه لم يكن عندهم هذا قبل نزول القرآن ، فجاء الإسلام ونزل القرآن ، وأفصح بالمعاد و بالبعث والنشور والحساب والكتاب ، ورد عقيدتهم الزائغة من الفناء المحض وعدم بقاء الروح واستبعادهم النشأة الثانية ، وتعجبهم من اجتماع الأجزاء البائدة عندهم بعد كونها رفاتاً رميماً ، ونطق بالبقاء بعد ماكان في الظاهر عديماً، ومثل لهم تمثيلات تقرب إلى الأذهان حقيقة البعث ، و يكشف ما فيه من الخفاء والبعد بحيث تطمئن بها قلوبهم ، وتشفى بها نفوسهم ، فاستعمل لهذه الحقيقة لفظ التوفي بمعنى استيفاء الشيئ كاملاً وتحصّله سالماً ، من غير أن ينقص منه شيئ ، فللأرواح عنده مقرها ، ولأجزاء الجسد لديه مستقرها ، فيجمعها إذا شاءها العليم الخبير ﴿وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾ فكل ذرة من ذراتها لا يعزب عن عمله ، ولا يشتبه عليه منها شيئ ، فقال عز من قائل : ﴿وعندنا كتاب حفيظ﴾ .

قال الشيخ : وما للأغمار ولمثل ألفاظ القرآن حقيقة ومعرفة ، وحلاوة ووقاراً ، وفخامة وجزالة ومتانة ، وأين أنت من لفظ الشهادة للقتل ، ومن التعبير للموت بقوله : ﴿فمنهم من قضى نحبه﴾ قال الشيخ في "تحية الإسلام" : والذي يُرى أن استعمال التوفي بمعنى الموت أيضاً شاع في الدورة الإسلامية تبعاً للقرآن ، ولعله لهذا لم يذكر الأزهري في "تهذيب الألفاظ" والثعالبي في "فقه اللغة"

"التوفي" في أسماء الموت، اهـ .

قال الراقم : و يؤ يد هذا أن صاحب "المخصص" ذكر من أسمائه التوفي ولم يستشهد له إلا بالقرآن كما قلته آنفاً ، فلم يكن عندهم حقيقة الموت كما عند الإسلام ، فكيف يعبرون عنها بالتوفي؟! فما كانوا يعرفونها بهذا المعنى ولا بهذا اللفظ بل كانوا يعرفون التوفي بأخذ الشيئ وافياً أي استيفاءه واستكماله كما قالت أخت طرفة في رثائه :

عددنا له ستاً وعشرين حجةً فلما توفاها استوى سيداً ضخماً

فجعنا به لما رجونا إيابه على خير حال لا وليداً ولا فحماً

قال الشيخ : وأشار بلفظ التوفي إلى لطيفة أخرى بأن المتوفىٰ يكون حق المتوفي فلا يقال مثلاً لأخذ الفرس من الصحراء : تَوفَّيتَ الفرس ، وإنما يقال : توفَّيتُ حقي أي حصلته ، و يقال في معناه بالفارسية : "وصول كردم حق خويش را" ، و إذا كان لتحصيل حقه والحق لا يكون عند الغير إلا عاريةً لمدة مضروبة تضمن إتمام المدة من هذا الوجه أيضاً من حيث استبداده بقبضه متى شاء ، كما قال ونعم ماقال:

وتراكضوا خيل الشباب وحاذروا من أن ترد فإنهن عواری

وصاحب الحق يأخذ متى شاء ، فهذا أيضاً معتبر فيه ، وكما قال:

وما الروح والجثمان إلا وديعة ولا بدّ يوماً أن تردّ الودائع

قال الشيخ : وفي لفظ التوفي إذا كان مسنداً إلى الله تعالىٰ لطيفة أخرى ، وهي أنه أشار به إلى أن المتوفى أصبح ملكاً للباقي ، فلا يبيد ولا يفنى ، ولفظ الشيخ في "تحية الإسلام" (ص-٣٣) : واعلم أن لفظ التوفي هو قبض الحق إذا كان مسنداً إلى الله تعالىٰ في مقام اختصاص دل على أن الشيئ المتوفى لا يفنى بعده

لصيرورته ملكاً للباقي ، وهو المراد بقوله تعالىٰ : ﴿ وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾ أي الإماتة والإحياء مرةً ثانيةً لا يدوم هكذا بل ينتهي على قوله : ﴿ثم إليه ترجعون﴾ وعلى قوله : ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾ فإذا كان المتوفى هو الروح كان باقياً بعده ، فدل هذا اللفظ على بقاء ما تُوفي ، ولما كان البدن في سائر الناس غير متوفى لحضرته تعالىٰ ، وكان سيدنا عيسى عليه السلام مما توفى الله بدنه مع روحه، زاد في آل عمران بعده : ﴿و رافعك إلي﴾ وخصّه به عليه السلام ، ولعل إسناد التوفي إليه تعالىٰ إما أن يكون في مقام الاختصاص ، أو في مقام الإرسال كآية الزمر بخلاف غيرهما ، فيسند إلى الملائكة اذن ، ولعل هذا أراده الراغب في "مفرداته" حيث قال : "توفي اختصاص وشرف لا توفي موت" ، انتهى بتصرف وتلخيص .

ثم إنه لما كان في النوم أيضاً نوع توفٍ استعمل له القرآن أيضاً التوفي في قوله: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ الآية ، وفي قوله : ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ الآية ، قال الشيخ : وإنما صرح بالأنفس في قوله تعالىٰ : ﴿الله يتوفى الأنفس﴾ لأن توفي الموت يعلم الناس حقيقته من القرآن بخلاف توفي المنام فإنه بديع عندهم ، فأعلمهم أن فيه توفياً للنفس ، فلم يكن بد من التصريح بها ، ثم لما أعلم به مرةً أرسل بعدها في قوله تعالىٰ : ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾.

قال الراقم : يريد الشيخ -رحمه الله- أنه لما علمهم بأن في المنام أيضاً توفياً وأورد لفظ الأنفس إعلاماً لهم وتعليماً ، فعلموا الحقيقة ، فتعارف التوفي فيهم بمعنى المنام أيضاً ، فاستغني بعده عن ذكر الأنفس في قوله تعالىٰ : ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ فالشيخ رحمه الله أزاح ماكان يختلج في الصدر فيما ذكره أولاً من نكتة ذكر الأنفس في الآية السابقة وتركها في الآية الأخرى ، فللّٰه دره ما أبهى

درره، ثم قال : أعني أنه صرح بها لإظهار حقيقة هي أن في المنام والموت توفياً وتحصيلاً وأن له تعالىٰ فيه ذلك الفعل ، وقد يجيئ القرآن لإظهار هذه الحقائق مما لا يعلمه أهل العرف ، ولعل العرب لا يعلمون أن في الموت توفياً بمنعى التحصيل ، إلى آخر ما قاله رحمه الله .

وقال الشيخ في مواضع من "التحية" ما ملخّصه : واعلم أن أهل الجاهلية لما كانوا يعلمون للموت أنه فناء محض وانعدام محض ، وهداهم القرآن أن الأمر ليس كذلك ، وأن في الموت توفياً وإن لم يكن التوفي هو الموت بعينه ، فإطلاق التوفى في محل الموت ، ولا نقول : على الموت ، إنما تعلمه العرب عن القرآن ، وهو الذي هداهم إلى هذه الحقيقة وعلّمها ، فحقيقة الأمر أن التوفي في كل مقام هو الأخذ ، و يصدق في الموت والنوم والرفع أن فيها توفياً ، فهذه حقيقة الأمر وفقه اللغة ، ومنصب القرآن بيان الحقائق ، ومن رزقه الله تعالىٰ ذوقاً في القرآن وحظاً في العربية يعلم أنه ليس يجري على الحوار العامي ، بل له طريقة متميزة في انتقاء الألفاظ ، واللحظ فيها إلى أصل وضعها ، ورعاية حقائق ما وضع لها ، ومن أجل ذلك يتعذر بل يستحيل وضع لفظ فيه بدل لفظ ، وذلك للجهل بحقائق الأشياء و بالذي يفي بحق المقام ، فهكذا يعيّن القرآن محطّ الفائدة بتعبير مفرد تتقاصر عنه الأفهام وتعجز عنه مدارك الأعلام .

ثم إن الشيخ –رحمه الله– أتى ببدائع وغرائب من أسرار البلاغة ولطائف نظم التنزيل في آية التوفي ، أعني قوله تعالىٰ : ﴿يا عيسى إني متوفّيك ورافعك إليّ﴾ الآية، في كتابه "عقيدة الإسلام في حياة عيسى عليه السلام" وتعليقاته "تحية الإسلام" ما يدهش الفحول ، ويحير العقول ، وتلاطم بحره المواج ، فقذف بدُرر غالية القدر ، ثمينة الذخر ما حرى بها أن تكون واسطة عقد الفصاحة ، وقاعدة

البلاغة والبراعة ، وبسط فيها الكلام ، وأحاط بسائر ما يتعلق بالمقام ، ما يتبين به ما للشيخ منزلة قاصية في علوم البلاغة تتقاصر عنه الخُطى ، وتحار فيها القطار ، ولو جمع جميع ما بثّه في كتابيه وجميع ما أحال عليه بالمراجعة إلى الكتب في هذه الآية خاصةً ، و يلتقط تلك الدرر المبثوثة فيها ، ثم يرتب ترتيباً أنيقاً على أسلوب عصري لصار سِفرًا كبيرًا ، ولا ريب ولكان أعلى ذخيرة وأعلاها في كتب التفاسير وكتب البلاغة والبيان ، وحقق هنا الشيخ هل هذا التوفي بمعنى الموت كناية بيانية أو أصولية ؟ وهل الكناية حقيقة لغوية أو مجاز لغوي ؟ وما ذا أقوال أئمة البلاغة في ذلك ؟ وما الحق فيها؟ وغير ذلك من لطائف البلاغة ما يقدر قدرها البليغ الـمُعاني ، ذو الذوق العظيم في المعاني ، وصاحب الحظ من فصاحة المباني، وعقد فصلاً مستقلاً في ذلك في كتابه "عقيدة الإسلام" ولفظه : فصل في تفسير لفظ التوفي وشرحه لغةً وعرفاً وبيانه حقيقةً وكنايةً ، وتوفية حقه واستيفاء مستحقته . اهـ .

والذي دعا الشيخ إلى كشف هذه اللفظة أولاً : هو الرد على اللعين القادياني المتنبّي الكاذب، وعلى أتباعه الملاحدة الذين قالوا بأن عيسى عليه السلام قد صلب ومات ، واستدلوا على ذلك بالقرآن ، فحرفوا القرآن ومسخوا، و صحّفوا غرضه ونسخوا ، كما قال الشيخ رحمه الله : وهذا اللفظ هو الذي شغب به ذلك الجاهل الشقي وأتباعه، ولهم فيه جعجعة ولا طحين ، وسودوا به الأوراق، وأصروا وكرروا ، فلا ترى كتابة لذلك الجاهل إلا وله جرة بحيث يسأم الناظر فيها و يلعن قلبه ساطرها ، وهذه هي بضاعته المزجاة وقد ردت عليه فخُسِئ ولم يعد قدره ، وكان كما قيل :

ما زال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سر الزناد الوارى

فباراه الشيخ -رحمه الله- وكافحه ، ورد عليه أبلغ رد، وصدع بالحق بحيث لم يبق مجالاً ، وتركه على مشفر الأسد ، وأثبت كأن القرآن نزل لرده ولوضع جمر الغضا في جوانحه ، وسدّ عليه الأبواب من كل جانب ، فأصبح مدحوراً وله عذاب واصب ، وليس هذا موضع إيفاء القول وإنهاء البيان فيه ، فلنقتصر على هذا القدر النزر ، وربما يخطر بالبال أن لو وفقني الله لذلك لقمت بأعبائه ، و بإخراج هذه النفائس الكامنة من معادنها الثمينة إنفاقاً على طلبة علوم البلاغة والبيان من مأدبته الجُفلى ، ومائدته التي هي أعلى و أجلى ، والله ولي التوفيق والإعانة ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

ثم يقول الراقم : وهذه الجهة أعني إعجاز القرآن بمفرداته من هذه الجهة الغامضة التي قررها الشيخ لم يتنبّه له أحد مثله ، ولم يكشف عنها بتلك المثابة ، وإن كانوا تنبهوا له من جهات أخرى من جهة التركيب والترتيب ومع هذا لم يجعلوها مناطاً للإعجاز ومحطًّا للتحدي والمباراة ، وكان التنبيه عليه من الأعنى في باب الإعجاز والأهم في باب المجاراة ، وأحاول أن ألتقط من كلمات بعض الأعلام ما يوضح ذلك ، والشيخ -رحمه الله- لم يتوجه إليها لأنها مما كان تدرك ببادي الفكرة للبلغاء المصاقع، أولأن القوم نبهوا عليها ، وإنما همّ الشيخ كان إبداء الغوامض وكشف مالم يكشفوا ، فلم يكن من دأبه سرد ما قالوه كأصحاب العلوم المتوسطين ، بل دأبه دأب المحققين الذين بلغوا غاية التحقيق والتدقيق ، إلا إذا دعته إليه ضرورة ، والله المستعان .

فأقول : ربّ كلمة تكون قبيحةً نافزةً سمجةً في غير القرآن وهي تكون حسنةً وملائمةً في نظم القرآن بحيث لا ينوب غيرها منابها ، وليس هذا إلا من إعجاز صنع الله الذي أتقن كل شيئ ، فلم يغادر فيه موضع خلة ، وهى لفظة

"ضيزىٰ" فإنها في موضعها لا يسدّ غيرها مسدها ، ألا ترى أن السورة كلها التي هي "سورة النجم" مسجوعة على حرف الياء ، فقال تعالىٰ : ﴿والنجم إذا هوى ، ما ضلّ صاحبكم وما غوى﴾ وكذلك إلى آخر السورة ، فلما ذكر الأصنام وقسمة الأولاد وماكان يزعمه الكفار قال : ﴿أ لكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذاً قسمة ضيزى﴾ فجاء ت اللفظة على الحرف المسجوع الذي جاءت السورة جميعها عليه ، وغيرها لا يسد مسدّها في مكانها ، وفي هذا المعنى كلمة أحسن منها ولكنها في هذا الموضع لا ترد ملائمةً لأخواتها وّلا مناسبةً ، لأنها تكون خارجةً عن حرف السورة ، فإذا جئنا بلفظة في معنى هذه اللفظة قلنا : قسمة جائرة أو ظالمة ، ولا شك أن جائرة أو ظالمة أحسن من ضيزى ، إلا أنا إذ نظمنا الكلام فقلنا أ لكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذاً قسمة ظالمة ، لم يكن النظم كالنظم الأول ، و صار الكلام كالشيئ المعوز الذي يحتاج إلى تمام ، وهذا لا يخفى على من له ذوق ومعرفة بنظم الكلام ، نبه عليه ابن الأثير ذلك الأديب الكاتب في كتابه "المثل السائر" (ص-٦٢) و لخصته بعض تلخيص.

أقول : ومن لطائف هذه الكلمة أنه أومىٰ بها إلى تقبيح تلك القسمة ، فإن اللفظ عنوان للمعنى ، و من دأب البلغاء أنهم يشيرون إلى تهو يل المعنى بتهو يل اللفظ ، وهذا موضوع واسع ينبغى أن يفرد بالبحث وليس هذا موضعه.

و يوضح ذلك ماذكره في (ص-١١١) من كتابه : إن لفظة : "الأخدع" وردت في بيتين من الشعر وهى في أحدهما حسنة رائقة ، وفى الآخر ثقيلة مستكرهة ، كقول ابن الصمة عبد الله من شعراء الحماسة :

تلفت نحو الحي حتى وجدتني ... وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا

وكقول أبي تمام:

يا دهر قم عن أخدعيك فقد أصججت هذا الأنام عن خرقك

ألا ترى أنه وجد لهذه اللفظة في بيت أبي تمام من الثقل على السمع والكراهة في النفس أضعاف ما وجد لها في بيت ابن الصمة عبد الله من الروح والخفة والإيناس والبهجة اه .

و ربما تكون الكلمة حسنةً رائعةً إذا أتيت بها مفردةً ، و ثقيلةً متنافرةً إذا أتيت بها مجموعة ، و ربما يعكس الأمر ، فالقرآن المجيد في الأولى يأتي بها مفردةً ولا يأتي بها جمعاً أبداً ، و في الثانية يأتي بها جمعاً و لا يأتي بها مفردةً أصلاً، مثال الثاني ما قال ابن الأثير في كتابه (ص-١١١) : ومن هذا النوع ألفاظ يعدل عن استعمالها من غير دليل يقوم على العدول عنها ، ولا يستفتي في ذلك إلا الذوق السليم ، وهذا موضع عجيب لا يُعلمْ كُنه سِرِّه ، فمن ذاك لفظة :"اللب" الذي هو العقل لا لفظة : "اللب" التي تحت القشرة ، فإنها لا تحسن في الاستعمال إلا مجموعةً ، وكذلك وردت في القرآن الكر يم في مواضع كثيرة وهى مجموعة ، ولم ترد مفردةً كقوله تعالىٰ : ﴿و ليتذكر أولو الألباب﴾ و ﴿ إن في ذلك لذكرى لأولى الألباب﴾ اه. ومن أشباهها لفظة :"الأكواب" ولفظة : "الأرجاء" فإنهما لم تردا في القرآن إلا بصيغة الجمع ، وترك المفرد فيهما وهو الكوب ، والرجا بالقصر، ومثال الأول كما قاله صادق الرافعي : لفظة : "الأرض" فإنها لم ترد إلا مفردةً ، فإذا ذكرت السماء مجموعة جيئ بها مفردة في كل موضع منه ، ولما احتاج إلى جمعها أخرجها على هذه الصورة التي ذهبت بسرّ الفصاحة ، وذهب بها حتى خرجت من الروعة ، بحيث يسجد لها كل فكر سجدة طو يلةً ، و هي في قوله تعالىٰ : ﴿الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن﴾ و لم يقل : سبع أرضين لهذه الجشأة التي تدخل اللفظ ويختل بها النظم اختلالاً

وقال ابن النفيس في كتاب "الطريق إلى الفصاحة" : قد تنقل الكلمة من صيغة لأخرى ، أومن وزن لآخر ، أو من مُضيّ لاستقبال ، أو بالعكس ، فتحسن بعد أن كانت قبيحةً و بالعكس ، فمن ذلك : "خود" بمعنى "أسرع" قبيحة ، فإذا جعلت اسماً خوداً وهى المرأة الناعمة قلّ قبحها ، وكذلك : "ودع" يقبح بصيغة الماضى لأنه لا يستعمل "ودع" إلا قليلاً ، ويحسن فعل أمر وفعلا مضارعا ، ولفظ "اللب" بمعنى "العقل" يقبح مفرداً ولا يقبح مجموعاً كقوله تعالىٰ : ﴿لأولي الألباب﴾ قال: ولم يرد لفظة : اللب مفرداً إلا مجازاً كقوله ﷺ : ((مارأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن)) أو مضافاً إليها كقول جرير:

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به   وهن أضعف خلق الله أركانا

وكذلك : "الأرجاء" تحسن مجموعةً كقوله تعالىٰ : ﴿والملك على أرجائها﴾ ولا تحسن مفردةً إلا مضافةً كقولنا : رجا البئر ، وكذلك "الأصواف" تحسن مجموعةً نحو قوله تعالىٰ : ﴿ومن أصوافها﴾ ولا تحسن مفردةً كقول أبي تمام:

فكأنما لبس الزمان الصوفا

ومما يحسن مفرداً و يقبح مجموعاً المصادر كلها ، وكذلك : طيف وطيوف ، و بقعة و بقاع ، و إنما يحسن جمعها مطلقاً مثل : بقاع الأرض اه ، حكاه الشيخ بهاء الدين السبكي في "عروس الأفراح".

وإذا كان لمعنى واحد عدة ألفاظ ولم يخل منها واحد من الثقل والاستكراه أو الابتذال ، فالقرآن الحكيم في مثل هذه المواضع يعبر عن هذا المعنى بلفظ يؤدي أصل الحقيقة و يعدل عن اللفظ الموضوع لها ، قال ابن الأثير (ص-٧١) من كتابه : وإن شئت أن تعلم من سِرّ الفصاحة التي تضمنها القرآن فانظر إلى هذا

الموضع ، فإنه لما جيئ فيه بذكر "الآجر" لم يذكره بلفظه ولا بلفظ "القرمد" ، ولا بلفظ "الطوب" الذي هو لغة أهل مصر ، فإن هذه الأسماء مبتذلة ، لكن ذكر في القرآن على وجه آخر وهو قوله : ﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إلٰه غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا﴾ فعبر عن "الآجر" بالوقود على الطين .

قال الراقم : و ذكر المفسرون في هذا التعبير نكتةً أخرى أيضاً وهي : أنه لم يكنّ الناس يعرفون قبل فرعون الطوب والقرمد ، ففي هذا التعّبير تعليم إلى هذه الصنعة وكشف عن حقيقة القرمد ، ولا تزاحم في النكات والأسرار .

و بالجملة : فلأسرار فصاحة كتاب الله الباهر وروعة إعجازه المحير بدائع و روائع ما يذهب بالألباب حسنها و بهاؤها ، و ماءها و نماءها ، و رونقها و بهجتها ، و حسن سبكها و روعتها ، و هذا الموضوع بحر زاخر لا ساحل له ، و إنما أوردت بقطرة من البحر ، و ثمد من العين الثرثارة ، وحاشاه أن تحيط بجميع محاسنه عقول الأنام ، و قد تاهت له الأحلام ، وطاشت في بواديها الظنون والأوهام ، قال ابن الأثير: فلينعم الخائضون في هذا الفن نظرهم ، و يعلموا أن في الزوايا خبايا ، و إذا أنعموا الفكر في أسرار الألفاظ عند الاستعمال ، و أغرقوا في الاعتبار والكشف وجدوا غرائب وعجائب اهـ ، فهذه وجوه من وجه الإعجاز بالمفردات، صدعت بقدر يسير منها إيضاحاً لكلام الشيخ رحمه الله .

٢- إعجازه من جهة التركيب

قال الشيخ : وأما إعجازه من جهة التركيب والترتيب ، فهو أن القرآن الحكيم ينتقي تركيباً للمفردات من عدة تراكيب يسعها المقام ولا ينبو عنها الذوق بادي الفكرة ، إلا أن القرآن يختار تركيباً لا يمكن أبلغ منه وأوفى بالحقيقة وأجدى

في صدع الغرض ، مثاله قوله تعالىٰ وجل ذكره :﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾ وكان حق العبارة بادي الرأي : و جعلوا الجن شركاء لله ، ولكن غرض التنزيل أنهم جعلوا لله شركاء لا لغيره ، يعني جعلوا شركاء للإله الواحد الذي هو أغنى عن الشريك ، ففي تقديم "لله" استعظام بقبح ما ارتكبوه ، فهذه سفاهة ، ثم إنهم لم يقتنعوا بهذا بل جعلوا شركاءه الجن الذي هو مخلوق ضئيل من مخلوقه ، فهذا سفاهة أخرى ، فالغرض الذي سيق له الكلام لا يتأتى إلا بالتركيب الذي اختاره التنزيل العزيز ، فالتنزيل يغير التركيب الذي يقتضيه ظاهر مساق العبارة لأسرار لطيفة ربما تجل عن الأفهام ، وتدق عن الأحلام .

قال الراقم : وهذا الذي اختاره الشيخ -رحمه الله- في غرض التعبير القرآن يحتمل أن يكون مبنياً على أن الجن بدل من شركاء كما اختاره الفراء وأبو إسحاق كما حكاه أبو سعود في "تفسيره" وكما اختاره الحوفي وأبو البقاء كما نقله أبو حيان في "بحره" و "نهره" ، وهذا و إن كان يرد عليه أن القول بالبدلية لا يصح لأنه لا يستقيم ذكر البدل موضع المبدل منه فقط وهو شرط لكن يمكن البناء على مذهب من لم يشترط الكلية في هذه الضابطة الإعرابية ، وليس هذا موضع البحث عنه ، ويحتمل أن يكون الجن مفعولاً أولاً ، قدّم المفعول الثاني عليه للنكتة المذكورة وهو المتبادر من كلام الشيخ رحمه الله ، وعلى كلا التقديرين "لله" متعلق بشركاء ، قُدّم للاهتمام الذي أسلفته في بيان المعنى وراعيته في تفسير اللفظ ، و على الاحتمالين يدور كلام الزمخشري في "كشافه" فليراجع ، و لفظ الزمخشري : فإن قلت : فما فائدة التقديم ؟ قلت : فائدته استعظام أن يتخذ لله شريك من كان ملكاً أوجنياً أو إنسيّاً ، ولذلك قُدّم اسم الله على الشركاء اهـ ، وههنا أعاريب أخرى لا طائل في سردها ، ولا يصح بناء كلام الشيخ كله عليه ، هذا !

وقال الشيخ -رحمه الله- في خاتمة كتابه "نيل الفرقدين" : ومن المعلوم أن لا ترادف في المفردات عند المحققين وكذا في المركبات فضرب زيد عمراً ، وضرب عمراً زيد ، و زيد ضرب عمراً ، كلها تراكيب متغايرة في المعاني الثواني، وكذا زيد قائم ، و قائم زيد ، و زيد القائم ، و القائم زيد اه .

ثم أقول : وهذه الجهة من الترتيب والتركيب من جهة المعنى تدور عليها البلاغة المعنوية وربما تحتوي على دقائق قلّما يتنبه له إلا ذو حظ عظيم من علوم البلاغة أمثال الزمخشري والجرجّاني إن كان لهما أمثال ، فكان هذه الجهة أعنى وأهمّ ، فاعتنى به الشيخ - رحمه الله- وللترتيب جهات أخرى من التلاءم ، والروعة ، والبهاء ، والسلاسة ، ودفع الهجنة من اللفظ ، والثقل على السمع ، والاستكراه للنفس ، بحيث يصاغ في أحسن ترتيب ، و يفرغ في أبدع قالب ، نبه عليه ابن الأثير وغيره من علماء الفن ، ولا بأس بإيراد بعض الأمثلة أداءً لحق المقام و إيضاحاً للمرام ، قال في "المثل السائر" (ص-٥٧) : واعلم أن تفاوت التفاضل يقع في تركيب الألفاظ أكثر مما يقع في مفرداتها ، لأن التركيب أعسر وأشق ، ألا ترى أن ألفاظ القرآن الكريم من حيث انفرادها قد استعملها العرب ومن بعدهم، ومع ذلك فإنه يفوق جميع كلامهم و يعلو عليه ، وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب ، وهل تشك أيها المتأمل لكتابنا هذا إذا فكرت في قوله تعالىٰ : ﴿و قيل يا أرض ابلعي مآءك و يا سماء أقلعي وغيظ الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بُعدا للقوم الظالمين﴾ و إنك لم تجد ما وجدته لهذه الألفاظ من المزية الظاهرة إلا لأمر يرجع إلى تركيبها ، وإنه لم يعرض له هذا الحسن إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة وكذلك إلى آخرها ، فإن ارتبت في ذلك فتأمل هل ترى لفظة منها لو أخذت من مكانها وأفردت بين أخواتها كانت لابسةً عن الحسن ما لبسته في موضعها من الآية ؟

ومما يشهد لذلك و يؤ يّده أنك ترى اللفظة تروقك في كلام ، ثم تراها في كلام آخر فتكرهها ، فهذا ينكره من لم يذق طعم الفصاحة ولا عرف أسرار الألفاظ في تركيبها وانفرادها ، وسأضرب لك مثلاً يشهد بصحة ما ذكرته ، وهو أنه قد جاءت لفظة واحدة في آية من القرآن و بيت من الشعر فجاءت في القرآن جزلةً متينةً ، وفى الشعر ركيكةً ضعيفةً ، فأثر التركيب فيها هذين الوصفين الضدين ، أما الآية فهي قوله تعالىٰ : ﴿فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق﴾ و أما بيت الشعر فهو قول أبي الطيب المتنبّي:

تلذّ له المروءة وهي تؤذي و من يعشق يلذّ له الغرام

وهذا البيت من أبيات المعاني الشريفة إلا أن لفظة تؤذي قد جاءت فيه وفي الآية من القرآن ، فحطّت من قدر البيت لضعف تركيبها ، وحسن موقعها في تركيب الآية ، فأنصف أيها المتأمل لما ذكرناه ، وأعرضه على طبعك السليم حتى تعلم صحته ، وهذا موضع غامض يحتاج إلى فضل فكرة و إمعان نظر ، وما تعرّض للتنبيه عليه أحد قبلي ، وهذه اللفظة التي هي "تؤذي" إذا جاءت في الكلام فينبغي أن تكون مندرجةً مع ما يأتي بعدها متعلقةً به كقوله تعالىٰ : ﴿إن ذلك كان يؤذي النبي﴾ ثم قال : ومن يعشق يلذّ له الغرام ، فجاء بكلام مستأنف وقد جاءت هذه اللفظة ، اهـ .

وقال في (ص-٧٤) : وأما إذا صارت مركبةً فلتركيبها حكم آخر ، وذاك أنه يحدث عنه من فوائد التأليفات والامتزاجات ما يُخيّل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التي كانت مفردةً ، ومثال ذلك كمن أخذ لآلي ليست من ذوات القيم الغالية ، فألفها وأحسن الوضع في تأليفها ، فخُيّل للناظر بحسن تأليفه و إتقان

صنعته أنها ليست تلك التي كانت منثورة مبددةً ، وفي عكس ذلك من أخذ لآلي من ذوات القيم الغالية ، فيفسد تأليفها ، فإنه يضيع من حسنها ، وكذلك يجري حكم الألفاظ العالية مع فساد التأليف ، وهذا موضع شريف ينبغي الالتفات إليه والعناية به اهـ. وقال الإمام الرازي في أواخر تفسير سورة البقرة من تفسيره "مفاتيح الغيب" (٥٦٤-٢) : ومن تأمّل في لطائف هذا النظم وفي بدائع ترتيبها ، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته ، ولعل الذين قالوا : إنه معجز بحسب أسلوبه، أرادوا به ذلك ، اهـ .

وقد نبّه الأمير اليمني في الجزء الثالث من "الطراز" في الفن الثالث على مزية ألفاظ القرآن بحيث أصبح في أعلى ذروة الفصاحة ومقتعد صهوة البلاغة على أربعة وجوه : فقال في (٢١٩-٣) : المزايا الراجعة إلى ألفاظه تارةً ترجع إلى مفردات الحروف ، و تارةً إلى تأليفها من تلك الأحرف ، ومرةً إلى مفردات الألفاظ و مرةً إلى مركباتها ، فهذه أربعة أوجه لا بدّ من اعتبارها في كون اللفظ فصيحاً ، وكلها حاصلة في القرآن على أتم وجه وأكمله ، ثم فصّل الوجوه الأربعة ومثّل لها من القرآن مثالاً حاوياً لهذه المزايا الأربعة قوله : ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك﴾ إلى آخر الآية ، ثم أطنب الكلام فيها في إبراز بدائعها و روائعها وظواهر محاسنها ومكامنها إفراداً وتركيباً ، وضعاً وترتيباً ، لفظاً و معنىً ، من جهة البيان والمعاني والبديع ، من (ص-٢٢٦ إلى ٢٥٠) بحيث يستولي الأريحية على اللبيب من كل باب ، و يستفزّ الطرب للطائفة أولي الألباب ، بتعبير يسري في الحسن ، و ينفذ في العروق ، و يهديك إلى إعجاز القرآن ذوقاً ووجداناً ، ومعرفةً و إيقاناً ، ونوراً و برهاناً ، وسكينة واطميناناً ، جزاه الله عنا وعن سائر المستفيدين خير ما يجزي به عباده المحسنين ، وخوف الإطالة والخروج عما أنا بصدده من الإيجاز

والاقتصار بالإيماضات يكبح شكيمة المزبر عن ذكرها.

ثم إني أظنك أيها البصير أنك اطلعت إجمالاً على ما أرشد إليه شيخنا -رحمه الله- من إعجاز نظم التنزيل من وجه النظم البديع، والتأليف المرصع، والترتيب المحكم في استنارة من تلك القبسات، واستشفاءً بتلك النفثات، ولعلك علمت جهتين في فصاحة المفردات من جهة تلاؤم الحروف بعضها ببعض، وخفتها على السمع وسلاستها في النطق و من جهة أداء الحقيقة المطلوبة بمعانيها وأغراضها التي لا يطلع على حقّائقها إلا العليم الخبير، وفي فصاحة المركبات من جهة ضم بعضها ببعض، و إيراد كل كلمة في محلها كأن بعضها آخذ بحجز بعض، ثم من جهة معانيها التي صيغ له الترتيب الأنيق، ونيط به الغرض الدقيق، وفيما ذكرنا مقنع وكفاية للبصير غير بعيد، إن في ذلك لذكرىٰ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

٣- إعجازه من جهة المقاصد

وأما الإعجاز باعتبار المقاصد فقال الشيخ -رحمه الله- : و أريد بالمقاصد ما يلزم المخاطبين تعلمها والانصباغ بصبغها، والمعاملة بها مع المخلوق بحسب ما يقتضيها، كما يذكره علماء الأمة في شرح أسماء الله الحسنىٰ، ولفظ الشيخ بالأردوية:

''مقاصد سے میری مراد مخاطبین کو سبق دینا یا لینا ہے، جیسا کہ علماء کرام نے اسماء حسنیٰ کی شروح میں لکھا ہے''۔

و كانت كلمات الشيخ موجزةً فلم ينشرح لها صدري كما يليق، فسألت عنها شيخنا المحقق العثماني -رحمه الله- وعرضتها عليه، فأفادني وأرشدني إلى مطالعة ''قطب الإرشاد'' للعارف الأفغاني فقير الله بن عبد الرحمن التراسي الجلال

آبادي العلوي الحنفي، فدونك الآن ملخص ما استفدته منقحا واضحا [١] فأقول:

الأمور الثلاثة في أسماء الله الحسنىٰ

إن هناك- أعني في أسماء الله الحسنى، ثلاثة أمور:

١- مرتبة العلم.

٢- مرتبة الاعتقاد.

٣- مرتبة العمل.

فأما تحقق هذه الأسماء، فيعنون به أن يتحقق العبد معاني هذه الأسماء على ما اتصف به الله سبحانه وتعالىٰ، ويحصل معرفتها بما يليق بكبريائه وعظمته جلّ مجده، فلا يقيس به مخلوقاً من خلقه، ولا صفةً له بصفات مخلوقه، فيعلم أن له بصراً لا كأبصار المخلوق، وسمعاً لا كأسماعهم وهكذا، و يقدّسه ويمجّده عما لا يليق بجلال كبريائه ومجده، ليس كمثله شيئ، وهو السميع البصير، إلى ما انتهى إليه مقدرة البشر.

وأما التعلق بهذه الأسماء فيريدون أنه لما كان الله سبحانه وتقدّس متصفاً بصفات كبريائه الأسنىٰ، ومتسماً بأسمائه الحسنى، فما ذا يكون حظ العبد منها؟ وكيف يكون علاقة العبد مع خالقه؟ فقالوا: أن يستغرق العبد في جلال صفاته وجمال أسمائه بحيث يستشعر بها قلبُه كل حين، و ينقاد لآثارها وأنوارها بما يستدعيه، و يذعن لها بقلبه بما يقتضيه، حتى يرتسم فيه الآثار مما انعكس عليه من الأنوار.

وأما التخلق بها، فيحاولون أن ينصبغ العبد بأمثال تلك الصفات

---

(١) كانت هناك عدة أقوال للعلماء والعرفاء في تفاصيل المراتب الثلاث، فصدعت بالذي تحقق لديّ وتنقح، وعبرت عنها بلفظي بز يادات لكشف الحقيقة وأداء الغرض وتفهيم المقصود، والله ولي التوفيق. منه.

الربانية ، و يستسلم لها فعلاً وعملاً ، و يصبح مظهراً لكل صفة من صفاته تبارك وتعالىٰ ، فيعامل المخلوق بحيث يلوح فيه آثار الاستخلاف والنيابة ، حيث جعله خليفةً في الأرض ومظهراً لصفاته ، كما في الحديث : ((إن الله خلق آدم على صورته، فجعله سميعاً بصيراً وهداه إلى الخير والشر ، والحق والباطل)) فالمطلوب منه أن يعمل ما يتقاضى منه شئونه تعالىٰ ، فيتخلق بالملكات الجليلة ، والصفات الحميدة ، والأفعال الحسنة ، والأعمال القيمة ، و يدين بها البرية كلها من غير غرض يعود إليه نفعه عاجلاً ، ومن غير منفعة ترجع إليه في الدتيا ، بل لا يريد عامله إلا رضاه ولا يطلب إلا وجه مولاه ، ويحسب أنه أداء لما وجب على ذمته ، وقضاء لما يتقاضاه منصبه ، فهذا هو التخلق بأسماء الله سبحانه وتعالىٰ ، وهذا هو الانصباغ بصفاته جل وعلا، ولنمثل لك مثالاً يتضح منه هذه المراتب الثلاث .

فالرحمٰن اسم من أسماء الله الحسنى ، فمرتبة التحقق فيه هو : معرفته بأن لله رحمة عظيمة هي له صفة أزلية أبدية باقية ببقائه ، وأنه موصوف بهذه الصفة حقيقةً وإن لم يدرك كنهها ولم يعرف حقيقتها ، وأن ما في المخلوق من صفات الرحمة هي آثار من أثرها ونور من أنوارها ، وانبجاس من عينها ، وانفجار من معينها ، وهو سبحانه أجلّ من أن يشاركه فيه مخلوقه ، أو يساهمه فيه عبيده ﴿ليس كمثله شيئ وهو السميع البصير﴾ ومرثية التعلق فيه : أن يخضع له العبد بقواه وجوارحه ، وظاهره وباطنه ، في قعوده وقيامه ، و يقظته ومنامه ، و يشكره شكراً يليق لرحمته التي لا تُحدّ بحدّ ، ولا تُحصى بعدّ جوارح وأركاناً ، وقلباً ولساناً ، و يعلم أن له مناً و إحساناً إلينا ، فيجب له الطاعة علينا ، ومرتبة التخلق به : أن يرحم المرؤ على عباده ، و يواسيه في مصائبه ، و يعينه في نوائبه ، و ينفق عليه من يده ، ويحسب ذلك وظيفةً من وظائفه و منصباً من جليل مناصبه ، لا يريد به إلا رضاء خالقه ومالكه ، إلى غير ذلك من شئون رحمته تبارك وتعالىٰ .

هذا وليقتنع بهذا الإجمال، فليس هذا موضع استيفاء البيان و إنهاء القول فيه، فأقول: فهذه المراتب الثلاث: كل مرتبة لاحقة متفرعة على السابقة، فالتخلق فرع التعلق، والتعلق فرع التحقق، والتحقق هو مرتبة الاعتقاد والإذعان، والتعلق مرتبة الصفات النفسانية، والتخلق مرتبة الصفات الفعلية، نعم يختلف هذه المراتب قوةً وضعفاً باعتبار مراتب العرفان والإيقان، فالكامل في الأولى هو الكامل في الثانية، والكامل في الثانية هو الكامل في الثالثة، وأيضاً هناك اختلاف في جبلة العبيد وفطرتهم من الملكات الغريزية والأخلاق الطبيعية، فمنهم من هو أقرب إلى انصباغ صفات الجلال، ومنهم من هو أدنى إلى صفات الجمال، والكامل منهم من كمل فيهما، وليس هذا موضع التفصيل.

ثم إن مراد الشيخ فيما أرى - والله أعلم- أن يتعظ و يتمسك و يدين بها الناس، وأن يعلم أن كمال العبد لا يحصل إلا بها، و يوقن أن نجاته ونجاحه وفوزه وفلاحه في علمها والاعتصام بعروتها الوثقى التي لا انفصام لها، و يعلم أن فيها السعادة الأبدية، وفيها المرضاة الإلٰهية، فتنقاد لها غرائزها الفطرية وتنصبغ في صبغها، و يكون كالميت في يد الغسال لإطاعة أحكامه وأوامره، معتبراً بعِبَره، ومتعظاً بترهيبه وترغيبه، متذكراً بقصصه وأمثاله، ومتدبراً في حقائقه ومصالحه، وما يعود إليه نفعه في عاجله وآجله، و خواتمه و فواتحه، متبصراً بظواهره وبواطنه، متيقظاً لتنبيهاته و إيقاظاته، متطلعاً لإشاراته و إيماضاته.

ثم قال الشيخ -رحمه الله-: ولتكن مقاصد القرآن ما فيه ذكر المبدأ والمعاد، وصلاح معاش العباد، وفلاح الدنيا ونجاح الآخرة، ولفظ الشيخ رحمه الله:

''قرآن حکیم کے مقاصد وہ ہونے چاہئیں جن سے مبدأ ومعاش ومعاد اور فلاح ونجاح دنیا وآخرت وابستہ ہو''۔

يعني أن مقاصد القرآن الحكيم تنبيه العباد إلى أحوال المبدأ والمعاد من الاعتقاد بالإله الصانع القدير المختار ، خالق الأرض والسماوات وما بينهما ، و بأن له الأسماء الحسنى ، و بأنه خلق الخلق ولم يكن قبله شيئ ، و بأنه خلق الإنسان فسوّاه وصوّره فأحسن صوره ، وكرّمه على سائر بريته ، وأودعه نوراً ما يستطيع به أن يتفرس الأمور ، و يتوسم الآيات الكونية ، و يتدبر في نظامها البديع المحكم ، مع هذا بعث الرسل وأنزل الكتب لهدايته ، وأمره بشريعة ودين تكفل لصلاح معاشه ومعاده ، وما فيه نجاته في دنياه وآخرته ، وإن الدنيا متاع الغرور ، فلا يغرن ببهائها وزهائها ، في مائها ونماءها ، وأرضها وسمائها ، وطرواتها وطلاوتها، وعذوبتها وحلاوتها ، فإلى الله مرجعكم ومأواكم ، ولديه حسابكم ، و إليه إيابكم ، فتبيد هذه الدنيا وتفنى ، ألا إلى الله تصير الأمور ، فبيّن القرآن مراتبها وأحوالها ، وأوضاعها وأطوارها فقال : ﴿واعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً ، وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ .

ثم إن جهة إعجاز القرآن من هذه المقاصد أزهى ، فإنه كتاب عزيز وذكر حكيم تكفل لبيان هذه الأمور على أبدع وجوه وأبرعها ، وأفصحها وأنصعها، وأرفقها بالناس وأنفعها ، لا توازيه شريعة ، ولا يدانيه كتاب ، وبحيث تقصر عنها عقول الحكماء وأولي الألباب ، احتوى صفوة الشرائع الإلٰهية ، ونخبة الأديان السماوية ، فأخذ لبابها ، وأكمل نصابها ، واختار دررها وغررها ، واصطفى نخبها وزبدها ، ثم عليها السعادة الأبدية والنجاة السرمدية ، وبها يحصل الرضاء والرضوان وبها الفوز بنعيم الجنان ، وانتقى آداباً اجتماعيةً وأحكاماً نفسيةً ما تلائم نظام الفطرة ونواميس العالم ما لا يتصور في عقول البشر أتقن منها وأعلى،

وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ، فهل في العالم كتاب يكون عليه مدار السعادة والنجاة ؟ وهل في البرية نظام بديع صحيح يلائم فطرة البشر غير ماجاء به القرآن الحكيم؟ وهل غيره في الناس صحيفة تهدي إلى الحق وإلى الصراط المستقيم ؟ وهل في الدنيا ذكر حكيم ونور مبين يبين للناس طرق نجاح الدنيا ورقى المراتب العالية وسبل الفوز في الآخرة من جنات النعيم؟ ﴿وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ .

٤- إعجازه من جهة الحقائق

وأما إعجاز القرآن باعتبار الحقائق فقال الشيخ - رحمه الله-: وأريد من الحقائق الأمور الغامضة التي قصرت عن إدراكها العقول والأفهام ، ولا يكتنهها الأفكار والأوهام ، وما برحت فيها العقول مختلفة والجوانب متجاذبة ، فلم ينفصم فيها نزاعهم و جدالهم ، و لم يصب بالغرض رماءهم ونضالهم كمسألة خلق أفعال العباد تحيرت فيها العقلاء ، وتاهت في بادية إدراكها الحكماء ، فلم يكشف بحثهم و فحصهم فيها حقيقة الأمر في أن ربط العبد بفعله ما ذا وكيف ؟ ثم رباط هذا الفعل الحادث بالقدرة الأزلية القديمة كيف يكون؟ فالقرآن يختار في أمثال هذه المشكلات المعضلة تعبيراً لا يتصور أوفى منه في كشف حقائقها ، والصدع بمغزاها في مقدرة البشر .

وقد فرغت- والحمد لله- من شرح ما قاله الشيخ - رحمه الله - في وجوه إعجاز القرآن من الجهات الأربعة : جهة المفردات ، والمركبات ، والمقاصد، والحقائق ، وفصلت بعض ما أجمله بتفصيل يستحقه ، وأنا أدري أنه لا يوفّى حقُّه إلا بأن يُفرد بالتأليف في مجلد كبير حتى يكشف عن قناع الإعجاز في كل وجه ، و يقايس النظير بالنظير ، ثم يردف بسرد أمثلة كثيرة حتى يتبين الأمر أبين من فلق

الصديع وصديع الفجر ، بيد أني اقتصرت على ما سنح لي من الأعنى وقد قيل : ما لايدرك كله لا يترك كله ، ولا أرى حرجاً في إيراد عبارته بلفظه ما كتبه في بعض التحريرات ، وكأنه متن متين بلفظ رصين ، وإن كنت نقلت بعضاً منها في تضاعيف شرحي لغرضه ليعلم ما للشيخ من الطول والباع الواسع في بلاغة الإيجاز والاختصار الجامع ، و إنه كيف يطوي المادة الغزيرة في كلمة موجزة وعبارة قصيرة ، وليستبين لصاحب البصيرة النافذة بأن جملة واحدة من كلامه ربما يفتقر إلى تأليف رسالة ، وليتبين الفرق بين من وصلوا من الأئمة إلى ذروة التحقيق ومن دونهم من علماء الأئمة ، وكأن الشيخ -رحمه الله - وضع أصولاً أربعةً لمفسر يأتي بعده ، ولا ريب أن هذه الأمور الأربعة من أعنى ما يجب على مفسر القرآن أن يكابد فيها و يعاني لها في التفسير ، فأقول: ولفظ الشيخ رحمه الله:

قرآن مجید وحکیم کا اعجاز مفردات اور ترکیب وترتیب کلمات اور مقاصد وحقائق کی جملہ وجوہ سے ہے، مفردات میں قرآن مجید وہ کلمہ اختیار فرماتا ہے جس سے اوفی بالحقیقت واوفی بالمقام ثقلین نہیں لاسکتے ، مثلاً جاہلیت کے اعتقاد میں موت پر توفی کا اطلاق درست نہ تھا، کیونکہ ان کے اعتقاد میں نہ بقاء جسد تھی نہ بقاء روح، توفی وصول کرنے کو کہتے ہیں، ان کے عقیدہ میں موت توفی نہیں ہوسکتی، قرآن مجید نے موت پر توفی کا اطلاق کیا اور بتلایا کہ موت سے وصولیابی ہوتی ہے نہ فناء محض، اس حقیقت کو کلمہ سے کشف کردیا، اور کہیں اس لفظ کا اطلاق اپنے اصلی معنی سے جسد مع الروح کے وصول کرنے پر کیا۔

ترکیب وترتیب جیسے ''وجعلوا لله شركاء الجن'' ظاہر قیاس یہ تھا کہ عبارت یوں ہوتی ''وجعلوا الجن شركاء لله'' ، لیکن مراد یہ ہے کہ انہوں نے خدا کے شریک ٹھہرائے کوئی معمولی جرم نہیں کیا، اور وہ شریک بھی کون (جن) پس یہ مراد اسی ترتیب اور نشست الفاظ سے حاصل ہوسکتی ہے۔

مقاصد سے میری مراد مخاطبین کو سبق دینا یا لینا ہے، جیسا علماء کرام نے اسماء حسنی کی شروح میں لکھا ہے، مقاصد قرآن حکیم کے وہ ہونے چاہئیں جن سے مبدأ و معاش و معاد اور فلاح و نجاح دنیا و آخرت وابستہ ہو۔

حقائق سے میری مراد وہ امور غامضہ ہیں جن سے عقول و افکار قاصر رہے اور تجاذب جوانب اور نزاع عقلا باقی رہا، جیسے مسئلہ "خلق افعال عباد" کہ عبد کا ربط اپنے فعل سے کیا ہے اور کیسے ہے؟ اور اس فعل کا ربط قدرت ازلیہ سے کیا ہے؟ قرآن مجید ایسے مقام میں وہ تعبیر اختیار فرمائے گا کہ جس سے اوفی بالحقیقۃ طوق بشر سے خارج ہو۔

انتهى ما قاله الشيخ - رحمه الله- فانظر أيها المتبصر المتفقد وأجل قداح نظرك الغائر بين ما قاله القدماء والمتأخرون في وجوه إعجاز القرآن و بين ما أفاده إمام العصر شيخنا- رحمه الله- تر الفرق الواضح ، فإن كنت ذا نصفة في الأمر وذا بصيرة في المحاكمة نافذة وسابرت الأنجاد والأغوار يتجلى لك الليل من النهار، فإن البون بعيد ، وما يوم حليمة بِسِرّ ، ثم أقول : أما أنا فقد أجلت نظري وحدقت بصري فيما قاله علماء الأمة -رحمهم الله تعالىٰ و أفاض علينا من بركاتهم و علومهم- في رسائلهم وكتبهم المفردة في هذا الموضوع كـ "إعجاز القرآن" للإمام شيخ السنة أبي بكر الباقلاني ورسالة "إعجاز القرآن" لأبي الحسن الرماني ، و "إعجاز القرآن" للفاضل الرافعي البصري ، وما ذكره العلماء في أضعاف كتبهم في غير هذا الموضوع كالإمام القاضي عياض المالكي في "الشفاء" والأمير اليمني في "الطراز" وما يذكره الشيخ عبد القاهر في "دلائل الإعجاز" وغيرهم ، وما انتقاه الشيخ الجلال السيوطي في كتابه "الإتقان" من أقوال أكابر الأمة من القدماء ومن بعدهم ، فلم أقف على أجمع وأبدع مما أفاده الشيخ - رحمه الله - فقد جلّى في هذه الحلبة وتجلّى ، وأفاد فأجاد ، فللّه درّه ، وأعلى قدره ، ما أبهى درره ، وما أزهى

غرره ، ثم الذي ذكره هو أنواع الإعجاز يندمج فيها كثير من الجزئيات الإعجازية التي ذكروها وسردوها ، نعم جميع جزئيات إعجازه لا تنحصر، لا يكاد يطلع على جميعها إلا العليم الخبير الذي أنزله بعلمه ، فهو علام الغيوب ، وقد قال القائل :

وعلى تفنن واصفيه بوصفه   يفنى الزمان وفيه مالم يوصف

نعم رأيت في "الإتقان"و"توجيه النظر" للجزائري عبارةً للإمام الخطابي-رحمه الله- وما رأيت أخصر وأجمع في كلمات القوم منها ، وهي أقرب ما قالوه إلى مآ أفاده الشيخ -رحمه الله- وإن كان في كلامه-رحمه الله- مآلم يتنبه له أحد فهو جذيله المحكك وعذيقه المرجب ، ولا يخلو نقلها عن فائدة عظيمة تتمةً لمقالتي ، فدونك الآن عبارته الجامعة ، قال-رحمه الله- فيما حكى عنه السيوطي في "إتقانه":

ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أن وجه الإعجاز فيه من جهة البلاغة لكن صعب تفصيلها ، وصغوا فيه إلى حكم الذوق ، والتحقيق أن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها في درجات البيان متفاوتة :

فمنها : البليغ الرصين الجزل.

ومنها : الفصيح القريب السهل.

ومنها : الجائز المطلق الرسل.

وهذه الأقسام للكلام الفاضل المحمود ، فالأول أعلاها ، والثانى أوسطها، والثالث أدناها وأقربها ، فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصةً ، وأخذت من كل نوع شعبةً ، فانتظم لها بانتظام هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة، وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين ، لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة يعالجان نوعاً من

الوعرة ، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبو كل واحد عن الآخر فضيلة خصّ بها القرآن ليكن آية بينةً لنبيه ﷺ .

وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور : منها : أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وأوضاعها التي هي ظروف المعاني ، و لا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، و لا تكمل معرفتهم باستيفاء جميع وجوه المنظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض ، فيتواصلوا باختيار الأفضل من الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله ، و إنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حاصل ، ومعنى به قام ، و رباط لهما ناظم ، و إذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة ، حتى لاترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً ، وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه ، وأما معانيه فكل ذي لب يشهد له بالتقدم في أبوابه ، والترقي في أعلى درجاته وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام ، فأما أن توجد مجموعاً في نوع واحد منه فلم يوجد إلا في كلام العليم القدير ، فخرج من هذا أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمّناً أصح المعاني من توحيد الله تعالىٰ ، وتنزيهه في صفاته ، و دعائه إلى طاعته ، و بيان لطريق عبادته من تحليل وتحريم وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، و إرشاد إلى محاسن الأخلاق ، و زجر عن مساويها ، واضعاً كل شيئ منها موضعه الذي لايرى شيئ أولى منه ، ولا يتوهم في صورة العقل أمر أليق به ، مودعاً أخبار القرون الماضية ، وما نزل من مثلات الله بمن مضى ، وعائد منهم منبئاً عن الكوائن المستقبلة في الأعصار الآتية من الزمان جامعاً في ذلك بين الحجة والمحتج له والدليل والمدلول عليه ليكون ذلك آكداً للزوم ما دعا عليه ، و إنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه ، و معلوم أن

الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتنسق أمر يعجز عنه قوى البشر ولا تبلغه قدرتهم ، فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته أو مناقضته في شكله ، إلى أن قال رحمه الله : وقد قلت في إعجاز القرآن وجهاً ذهب عنه الناس وهو صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس اهـ .

٥- وجه آخر من الإعجاز

وكان يقول إمام العصر شيخنا-رحمه الله- : ويمكن أن نعد هناك وجهاً آخر من وجوه الإعجاز غير ما ذكّرنا بيد أني لا أبرم على إحصائه من وجوه الإعجاز ، وهو أن دأب النظم القرآني في سياق الأدلة أنه يستدل لأمر بكلام ظاهره الخطابة وباطنه البرهان ، يعنى يكون بعبارته ومنطوقه ومدلوله المطابقي دالاً على إثبات الأمر بوجه خطابي إقناعي ، وبإشارته ومفهومه ومدلوله الالتزامي يدل على الحجة البرهانية القطعية كما ذكروه في دليل التمانع من التنزيل العزيز في قوله تعالىٰ : ﴿لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ وبهذا أجابوا من كفّر التفتازاني بقوله في "شرح العقائد" بعد تقرير الآية على الوجه المستفاد من منطوقها بأن الحجة إقناعية والملازمة عادية ، فإن معاصره العلامة الشيخ عبد اللطيف الكرماني قد شنّع عليه بقوله هذا تشنيعاً بليغاً حتى أكفره ، واستند في التكفير إلى أن الشيخ أبا المعين النسفي قد أكفر رئيس المعتزلة أباهاشم الجبائي في كتابه "تبصرة الأدلة" بقدحه في الآية في دلالتها على تعدد الآلهة و إثبات التوحيد ألف من أصحاب العلامة الشيخ علاء الدين محمد بن محمد بن محمد الحنفي البكاري رسالةً مفردةً في الذب عن شيخه ، وبيّن سرّ ذلك وأجاب عنه جواباً يطمئن به القلب ، و قد ساق ملخص ذلك الجواب الشيخ الكمال بن أبي شريف في كتابه "المسامرة شرح المسايرة" للمحقق الحنفي ابن الهمام صاحب"الفتح" و

"التحرير" والشيخ زين الدين قاسم بن قطلو بغا الحنفي في شرحه عليها.

أقول: وملخص ما لخصناه مع تصرف وزيادة مفيدة: أن الأدلة القرآنية بمنزلة الأدوية، فالطبيب الحاذق يستعملها على وفق الطبائع والغرائز من القوة والضعف، والبرودة والحرارة، ومن لم يراع ذلك لكان الفساد أكثر من الإصلاح، والضرر أكبر من النفع، فيطب الحاذق كل أحد بما يلائم مزاج المريض الشخصي، فهكذا التنزيل العزيز والذكر الحكيم في أدلته على إثبات الصانع المختار والتوحيد وغيرهما يختار ما يلائم عقول المخاطبيّن عند نزول القرآن، فالمخاطبون عند النزول جمهورهم لقصور أفهامهم عن البراهين المنطقية، ولعدم استيناسهم بالحجج المفيدة للقطع كان حوارهم بالتي تقصر عنها عقولهم أشد ضرراً عليهم كما تضر رياح الورد بالجعل، وكما يضرُّ نور الشمس بصر الخفاش، نعم لا تكفى الإقناعيات الظنية لأصحاب الفطنة، ومنهم من كانوا أصحاب الفطنة والذكاء، وإن القرآن بلاغ للناس كافة للعرب والعجم، والأسود والأحمر، والأبيض والأصفر، وكان ينبغى التنبيه أو الإشارة إلى ما يفيد البرهان من شفاء القلوب وشرح الصدور، فراعى القرآن في ظواهر أدلته ما يفيد جمهورهم، ولا ينبو عنها أذواق الفضلاء وأصحاب الفطنة، وأشار في بواطنها إلى ما يلزم الحجة على خواصهم وعقلائهم بالبراهين القاطعة اهـ، هذا ملخص ما ذكره شارحا "المسايرة" نقلاً عن الشيخ علاء الدين البخاري بمحو وإثبات، وكلامه طويل، من شاء فليراجع فإنه حسن مفيد.

وقد أشار إلى ذلك ابن رشد الفقيه الفيلسوف، وعدّه وجهاً من إعجاز القرآن في كتابه "فصل المقال" والإمام الرازي في غير آية من "تفسيره" وأما أن الشيخ -رحمه الله- لم يصرّ على عدّه من وجوه الإعجاز فلعل وجهه فيما أرى -والله

أعلم- أن هذا مما يمكن أن يلحق بالبلاغة القرآنية ، و يتبع بأساليبه البيانية، وأن الشيخ ذكر أنواعاً من الإعجاز لا أفراداً منه كما أسلفته ، فليس هو نوعاً مفرداً مستقلاً ، أو لما نبه عليه بعض الأعلام أن الأصوب الأتقن والأحكم والأسلم في إثبات المقاصد وتقرير الأغراض هو طريقة القرآن الكريم ، وهذه الطريقة التي هي تشفي القلوب وتجلوا العيون ، وما يذكره الفلاسفة بالبناء على قواعد اخترعوها فأكثرها لا ينتهي إلى قواطع يقينية ، ومع هذا فلا يسمن ولا يغني من جوع.

قال الحافظ ابن تيمية -رحمه الله- في كتابه "العقل والنقل" (١-٩١) المطبوع بهامش "المنهاج" : كل من أمعن في معرفة هذه الكلاميات والفلسفيات التي تعارض بها النصوص من غير معرفة تامةٍ بالنصوص ولوازمها ، وكمال المعرفة بما فيها ، و بالأقوال التي تنافيها ، فإنه لا يصل إلى يقين يطمئن إليه ، وإنما تفيد الشك والحيرة ، بل هؤلاء الفضلاء الحذاق-أراد بهم أبا حامد الغزالي ، والشيخ ابن العربي ، وابن سبعين ، وابن الفارض، وصاحب "خلع النعلين" والتلمساني وغيرهم - الذين يدعون أن النصوص عارضها من معقولاتهم ما يجب تقديمه تجدهم حيارى في أصول مسائل الإلٰهيات ، إلى آخر ما قال وأطال رحمه الله ، وقال قبله : وأنشد أبو عبدالله الرازي- يعني الإمام فخر الدين بن خطيب الري- في غير موضع من كتبه مثل كتاب " أقسام اللذات " :

نهاية أقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا و حاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قال وقالوا

وقال: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، أقرأ في الإثبات:

﴿الرحمٰن على العرش استوى﴾ ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ و اقرأ في النفي ﴿ليس كمثله شيئ﴾ ﴿ولا يحيطون به علما﴾ ﴿هل تعلم له سمياً﴾ ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي، انتهى ما حكاه -رحمه الله-.

ذكر بعض المزايا في التفسيرات القرآنية من كلام إمام العصر

قال إمام العصر رحمه الله : كل ما ذكره التنزيل العزيز في ضمن حكم من الأحكام ، أو جعله عنواناً للبيان في واقعة خاصة لا محالة يكون معمولاً في مرتبة من المراتب وصورةٍ من الصور ، ولا يبقى نظرياً وعلمياً محضاً لا يكون له علاقة بالعمل - وذلك تشريع دقيق- مثاله قوله تعالىٰ : ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ فكما أن مفاده ليس عاما حتى يصح التوجه كل حين في الصلواة إلى كل جهة فكذلك ليس مفاده علمياً محضاً أو مخصوصاً بشأن نزوله الخاص لمن اشتبه عليه القبلة ، بل بقى معمولاً به في النافلة حين الركوب على الدابة .

وقوله تعالىٰ : ﴿أقم الصلاة لذكري﴾ فالصلاة ليس هو الذكر فقط و إنما هي حقيقة تحتوي على أركان خاصة بها وآداب معينة من الشارع ، ومع هذا فكونها ذكراً فقط معمول به في بعض الصور ، فلم يبق عقلياً غير معمول به بل عمل به في صلاة الخوف ولا سيما إذا راعينا معه ما نقل عن الزهري : إذا تعذرت صلاة الخوف يكتفى بالتكبير ، وما قاله الفقهاء : إن الحائض ينبغى أن تتوضأ في وقت صلاتها وتجلس وتذكر الله.

ويمكن أن يدخل فيه آية الوضوء من ضم الرأس والرجلين في جانب ،

واليدين والوجه في جانب ، فيسقط جانب في التميم ، فظهرت فائدة ذكر الرجلين، وهما تغسلان مع الرأس وهو ممسوح به ، وأيضاً يبقى مادة لمسحها في بعض الأحوال من التخفف والوضوء على غير حدث للقيام إلى الصلاة ، وهذا أسلوب معجز، وراجع (ص-١٣٥ و ١٣٦) من "مشكلات القرآن" له .

وقال رحمه الله : كل آية و إن نسخت لابد أن يكون معمولاً بها في مرتبة من المراتب ، مثاله قوله تعالىٰ : ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ فإنه بقي معمولاً به للحبلى والمرضع مع كونه منسوخاً في منطوقه العام ، وبعض شرحه في (ص-٤٩) من "مشكلات القرآن" ، وقال رحمه الله : ربما يستفاد من التنزيل حكم يدل عليه نظمه ونسقه ، ثم قد يكون ورد في شأن نزول الآية ما يخالفه، فيتعارض ما يدل عليه منطوق النظم وما يدل عليه شأن النزول فيقع اضطراب وقلق في الغرض الصحيح ، قال رحمه الله : والوجه في ذلك عندي أن للتنزيل العزيز في أمثال هذه المواضع مرادين : مراد أوليّ ، ومراد ثانويّ ، فالذي يقتضيه نظم التنزيل الجليل يجعل مراداً أوّليًا ، والذي يقتضيه الحديث الوارد في شأن نزوله مراداً ثانوياً ، فكلا المعنيين يرادان من نظمه على هذا الترتيب.

قال الشيخ رحمه الله : وعلى ذلك ينحلُّ كثير من الإشكالات في كثير من المواضع : منها : ما في سورة القيامة قوله تعالىٰ : ﴿لا تحرّك به لسانك﴾ فتعسر على الأذهان رباط نظم الكلام بما قبله وما بعده نظراً إلى ما ورد عن ابن عباس مرفوعاً في "الصحيح" ما يتعلق بشأن نزوله حتى تأتي القول للرافضة بنقص التنزيل ، وحاشاه عن ذلك ، وادّعى روافض زنجبار نقص نحو عشرة أجزاء من القرآن ، كما ذكره الإمام الرازي ، وحاشا كلام وعد الله بحفظه من النقص ، فالجواب عندي عن هذه المعضلة أن ما ذكره الحديث هو المراد الثانويّ في مرتبة ثانية ، وما يقتضيه

نظم الكلام من المراد الأوّليّ الذي يرتبط به النظم و ينتظم به الكلام هو أن تتعلق هذه الآية وما بعدها بأحوال القيامة وأهوالها ، فلما ذكر الله سبحانه شيئاً من أحوالها عقبها بقوله : ﴿لا تحرك به لسانك﴾ أي لا تحرك بسؤال القيامة لسانك فتسأل عنها متى تكون ؟ كما يستعجل بها المشركون و يسألونك عنها ﴿لتعجل به﴾ أي تستعجل بوروده كما يستعجل بها هؤلاء ﴿إن علينا جمعه وقرآنه﴾ أي علينا جمع أحوالها و بيانها لك لتفهمها وتعلمها ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ فإذا تلونا عليك ذلك فعليك تلاوته وقراءته ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ أي ثم إذا جاء وعدها فعلينا بيانه .

فكان تسليته له ﷺ عما يخطر بالبال في مثل هذا و يقلق له الطبع البشري لبيان موعدها ، فأنزل هذا الخطور منزلة الواقع كما هو دأبه سبحانه وتعالى في الحوار مع عباده الأنبياء ، ولهذا عقب ذلك بقوله : ﴿كلّا بل تحبون العاجلة﴾ بياناً للفطرة البشرية والطبيعة الإنسانية من كونها مولعة بكل عاجل وغافلة عن آجل ، ويمكن تقرير الكلام بأبسط من هذا بحيث يطمئن به القلب ، وفي هذه الإشارة كفاية للأريب العاقل ، وهذا من إعجاز نظم التنزيل بحيث يستوفي جملة من المطالب بعبارة وجيزة ، ويحيط بجميع الجهات ، و لا يليق اقتصار القرآن في مثل هذا بما يفيده شأن نزوله فقط بل لا بد أن يراعى سياقه وسباقه وغرضه و فحواه .

ومن أمثلة هذه القاعدة عندي قوله تعالىٰ : ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد﴾ قال الشافعية : هذا مرتبط بصدر الكلام من قوله : ﴿الطلاق مرتان﴾ والغرض منه بيان الطلقة الثالثة ، وما وقع بينهما فهو اعتراض ، والخلع ليس طلاقاً بل فسخ ، و يؤيد هذا ما عند "أبي داؤد" وغيره أن قوله : ﴿تسريح بإحسان﴾ طلاق ثالث ، فلو تعلق قوله : ﴿فإن طلقها﴾ بما يتصله يكون هذا

طلاقاً رابعاً ، فيجب أن يكون تعلقه بصدر الكلام ، والجواب عندي أن قوله : ﴿تسريح بإحسان﴾ مراده ترك الرجعة ، أي ما يقابل الإمساك ، وهذا مراده الأوّليّ ، و يكون الطلاق الثالث داخلاً تحته كفرد من أفراده ، فإن الطلاق ترك للإمساك فكان قوله تعالىٰ : ﴿أو تسريح﴾ أعم من الطلاق الثالث ، وقوله : ﴿فإن طلقها﴾ لا يكون طلاقاً مستأنفاً حتى يكون رابعاً بل بيان لأحد نوعي التسريح ، فما أفاده الحديث هو مراده الثانويّ وما أفاده النظم القرآني هو مراده الأوّليّ ، وهذا هو المسلك الراجح عندي إذا تعارض الحديث والآية .

ومن ثَـمَّ قال الحنفية : إنه يتعلق بما يتصله لا بصدر الآية ، فإن فيه تفكيكاً لنظم التنزيل، إلى آخر ما قرره علماء الأصول ، و لم أر فيهم من صرّح بتعدد المرادين في نظم التنزيل إلا بعض المحشين على "التلو يح"[١] حيث قال: إن الخمر يطلق على ما ذهب إليه الحنفية وما ذهب إليه الجمهور ، وما قاله الحنفية هو المراد الأوّلي ، وما ذهب إليه الجمهور هو مراده الثانويّ ، انتهى ما قاله الشيخ مع تقر ير وتوضيح لكلامه على ما أدى إليه فكري .

و أقول : وهذا الذي أفاده الشيخ -رحمه الله- ههنا نظر أصوليّ نحتاج إليه في كثير من الأحكام والمسائل ، وقر يب منه ما قرّره أهل البلاغة ولا سيما إمام البلاغة الشيخ عبد القاهر الجرجاني من تقسيم معاني الكلام الفصيح إلى الأوّليّة والثانو يّة ، ومن أن مدار طبقات الفصاحة هو مز يتها باعتبار معانيها الثواني ، و بها تقع المز ية في كلام البلغاء ، وكان الشيخ رحمه الله أيضاً يقرّره ويجعله مما لا محيد عنه ، فليجعل هذا نظير ذلك نظراً إلى تعدد الاعتبار ين والمرادين و إن كان محط التعدد في الموضعين مختلفاً ، ويمكن أن يجعل مآل النظيرين واحداً ، فكما لا بد

---

(١) و أذكر أن الشيخ رحمه الله تعالى قال مرةً : هو المرجح ، قاله في حاشيته على "التوضيح" فليراجع حيث ترددت ذاكرتي .

من العلاقة والرابطة بين المعاني الأُول والمعاني الثواني ، كذلك لا بد من النسبة والعلاقة بين المراد الأول والمراد الثاني و إلا فكيف يمكن إدخالها في كلام واحد ، وليس الأمر كالأمر في الكلمات المفردة حتى يقال بالاشتراك ولو في الضدين، وحتى يقال بعموم المشترك ، فإن حكم المفردات غير حكم المركبات و إن الكلام هو في المركبات ، فاحفظه فإنه نفيس ولطيف إن شاء الله تعالىٰ .

مناط نظم التنزيل على الحوار العربي

ثم إن الشيخ رحمه الله كان يقول : والقرآن الحكيم و إن تضمن إرشادات لطيفة برهانية تفيد أولي الأذواق الفلسفية ، ولكن مع هذا لا يجعل ذاك محط الفائدة ومناط الغرض في نظمه الجزيل ، نعم من أمعن الفكرة وأعمل الروية، وخاض في أسراره المطوية ولطائفه المكنونة ، يهده إلى سواطع البرهان بحيث تزيده إيقاناً على إيقان ، فمناط سياق نظمه الجليل على مجاري العرف والحوار العربي من الاقتناع بالمسلمات والقضايا المقبولة عند أهل العرف دون البراهين التي تستفاد من مطلوبه ، وهذا التعبير أحسن و أوفق بالحقيقة مما سبق أن ظاهره الخطابة و باطنه البرهان و إن كان لفظ الظهر والبطن من تعبير الحديث ، فإن هذا التعبير في هذا الموضع يوهم أن الله جعلهما مناطاً للكلام ومحطاً للأمر ، و بالجملة : فمحامل الآيات القرآنية هي ما نطقت به من حوار العرف العربي ويجعل مداراً لتفسير القرآن ثم يستعان في كشف علومه بإشاراته المودعة فيه في ضمن لطائفه وأسراره التي هي بحار زاخرة لم يوجد لها ساحل ، فلا ريب أن هذا الأسلوب البديع في الاستدلال والاحتجاج بما يلائم الطباع كلها سواء الحكيم فيه وغيره ، مرمى بعيد ، ومسافة شاسعة ، وعنت شاق لا تبلغ إليه القدر البشرية والوسائل الحكمية والمناهج الفنية .

مدار آية التوحيد

وكان رحمه الله يقول : ليس مدار آية التوحيد يعني قوله تعالىٰ : ﴿ لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ على وقوع الفساد في النطام المشاهد وخروجهما عن هذا النظم المحكم على تعدد الآلهة كما تبادر إلى الأذهان العامة ، بل المدار فيها على أنه لو كان فيهما غير الله الواحد القهار سبحانه وتعالىٰ إلٰه أو آلهة لفسدتا ، يعني فسادهما متعين على عدم الله الحق الواحد فيهما ، سواء كان ذلك الغير إلٰه واحد أو آلهة متعددة ، فالآية على هذا الغرض مناطها ومحطّ فائدتها ، وإلى هذا المعنى أشار في قصيدته ضرب الخاتم على حدوث العالم بقوله :

ولو كان إلا الله قد قام فيهما لقد فسدا بالجور يجري لماهنا

قال الراقم : وهذا هو السر فيما قاله النحاة : إن "إلا" ههنا ليست استثنائية بل للصفة بمعنى غير حيث حققوا أنه لا يحمل "إلا" ههنا على الاستثناء ، كيف ولو حملت لصار المعنى لو كان فيهما اٰلهة واستُثني عنهما الله لفسدتا ، ومفادها أنه لو لم يستثن منهم الله تعالىٰ بل كان هو معهم ما فسدتا ، فكيف تكون الآية دليلاً على التوحيد؟ إذ من الجائز على هذا التقدير أن يكون فيهما آلهة غير مستثنىً عنها الله ، نعم إذا كانت بمعنى غير فتدل على أن جميع من كان مغايراً لله الواحد تعالىٰ سواء كان واحداً أو متعدداً ، وسواء كان هو معهم أو لم يكن لفسدت السماوات والأرض ، و بطل هذا النظام المشاهد المحكم البديع كما في قوله تعالىٰ : ﴿و ما كان معه من إلٰه إذاً لذهب كل إلٰه بما خلق و لعلا بعضهم على بعض﴾ فهذا هو منطوق الآية وله سيقت ، نعم يستفاد بطلان التعدد من مفهومها ، فهكذا فليفهم وليحقق .

ثم إن برهان التمانع المشار إليه في مطاوي الآية الكريمة له عدة طرق قرّرها وحقّقها عليها علماء الأمة ، منها : ظنية ، ومنها: قطعية ، والإمام فخر الدين

الرازي في "تفسيره الكبير" أوصلها إلى بضع وعشرين وجهاً بعضها برهانية وبعضها إقناعية ، من شاء فليراجع إليه فيجد هناك ما يشفي صداه ويطفىء وحره، والله الموفق والهادي إلى سواء الطريق .

القدر المعجز من القرآن المجيد

اعلم أن العلماء قد اختلفوا في القدر المعجز من القرآن ، وذكر طرفاً من الآراء الإمام الباقلاني في كتابه "إعجاز القرآن" (ص-١٩٨، مطبوع السلفية) وقال شيخنا -رحمه الله- : المعجز عندي أقصر آية من الآيات ، نعم وهذه الجهة والإعجاز في هذا القدر أغمض ، وربما تخفى على الكملة البارعين ، ولا يتجلى مرماها إلا على من كابد الخوض في المعاني ، وغاص في بحر البيان والمعاني، وراعى سائر الجهات التي سلكناها في مسلك الإعجاز ، قال الشيخ -رحمه الله- : وما نقل في الفقه عن فقيه الأمة إمام الأئمة أبي حنيفة -رحمه الله- من أن آيةً قصيرةً من آيات القرآن تكفي عن القراءة المفروضة في الصلاة ، وما نقل عنه أنه يجوز للجنب قراءة ما دون آية ولا يجوز قراءة آية كاملة إلا على طريق الدعاء أو الثناء ، فيمكن أن يكون مبنياً على أن القدر المعجز من القرآن عنده هو قدر آية ، ولو كان البناء على هذا فهو من غاية دقة نظر الإمام وسُمُوّ كعبه ، ولا ريب فهو فقيه الأمة ، تغلغل في الحقائق والأسرار ، ولم أر من الفقهاء من صرّح على ذلك إلا أنهم اكتفوا في الاحتجاج له بأن الأقل منها لا يطلق عليه اسم القرآن ، والله أعلم ، وقال رحمه الله: نعم لا أقدر على تعيين القدر المعجز من الآية الطويلة .

خاتمة لموضوع الإعجاز

اعلم أني قد بثثت في هذه الأوراق ما أفاده الشيخ -رحمه الله- ما يتعلق بالإعجاز ، وما وصل إليه فكري من شرح كلامه البارع بما يلائم هذه المقدمة

بقول وسط ، فلعلك علمت منه منزلته في خوض المشكلات ، والغوص في حقائق التنزيل ، وبعد مداركه الشاسعة في إعجاز القرآن ، ومن أجل ذلك كان يقول : قد وضع الله في طبيعتي معياراً للفصاحة والبلاغة يتبين عندي البليغ والفصيح من غيرهما ، وتستبين عندي مزايا هما ومراتبهما ذوقاً ووجداناً ، فلا أقلّد فيهما أحداً ، وكم من أشعار قدحوا في فصاحتها وهى عندي فصيحة ، وكم من كلمات طعنوا في بلاغتها وهي عندي بليغة ، أقول : ومن أمثلته أن عجز شعر أبي الطيب :

وتسعدني في غمرة بعد غمرة　　　سبوح لها منها عليها شواهد

قال بعض علماء الفن : إنه مخل بالفصاحة بكثرة التكرار ، فقال الشيخ : ليس فيه شيئ يقدح في فصاحته بل هو عندي فصيح ، ثم لما كان -رحمه الله- بهذه الذروة الشامخة من الفصاحة وعلوم البلاغة كان لا يرضى من"إعجاز القرآن" للباقلاني كل الرضا ، وكان يقول : الإمام الباقلاني هو متكلم من أئمة المتكلمين وليس هذا فنّه وإنما هو فن الشيخ عبد القاهر الجرجاني والشيخ العلامة الزمخشري، وقد جعل الله لكل فن رجالاً ، فللبلاغة رجالها، وللكلام رجاله .

أقول: وهذا كما قال ابن الأثير الجزري في "المثل السائر" (ص-١٤٨) : وبلغني عن أبي الفتح ابن جني - رحمه الله- أنه شرح ذلك -أراد قول أبي الطيب-:

تبل خدى كلما ابتسمت　　　من مطر برقه ثناياها

في كتابه الموسوم "المفسر" الذي ألفه في شرح شعر أبي الطيب فقال: إنها كانت تبزق في وجهه ، فظن أن أبا الطيب أراد أنها كانت تبسم فيخرج الر يق من فمها و يقع على وجهه ، فشبّهه بالمطر ، وماكنت أظن أن أحداً من الناس يذهب وهمه وخاطره حيث ذهب وهم هذا الرجل وخاطره ، و إذا كان هذا قول إمام

من أئمة العربية تُشدّ إليه الرحال فما يقال في غيره ، لكن فن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو والإعراب اه . وقال في (ص-١١٣) : وأسرار الفصاحة لا تؤخذ من علماء العربية وإنما تؤخذ منهم مسألة نحوية أو تصريفية ، أو نقل كلمة لغوية وما جرى هذا المجرىٰ ، وأما أسرار الفصاحة فلها قوم مخصوصون بها، اه .

استطراد : قال الراقم : وكلام الشيخ - رحمه الله- ذلك على كتاب الباقلاني كنت سمعته منه من برهة من الدهر سنة ١٣٤٦هـ فحلّ في قلبي لما كنت أعتقد إجمالاً في حق الشيخ بلوغه إلى غاية قصوىٰ وأمد بعيد ، ثم لما ارتقى بي الحال ووفّقني الله تعالىٰ لمطالعة كتاب الباقلاني وعرفت منزلة كتابه السامي ترددت كلام الشيخ -أعلى الله قدره- في حق كتابه ، ولم يبق مني ماكنت أقدر من قدر كلامه ، هذا في حق كتابه هذا ثم أمعنت النظر في كتاب الباقلاني ، واستجممت القريحة في كلام الشيخ ، واستمريت أخلاف الفكر فيما قاله في باب الإعجاز ، ثم أطلت الفكرة في كلام الشيخ وكلام الباقلاني وما بينهما من البون ، فعلمت علم يقين أن ما قاله الشيخ في حق كتابه هو حق باعتبار منزلته في معرفته إعجاز القرآن ، وحق له أن ينقد مثله على كلام الباقلاني ، ثم استقريت الأمور التي أدير عليها النقد، فوجدتها بحيث شفى الله بها صدري ، وأشير إليها في غاية الإجمال.

فأقول: أما أولاً : فهو أن كتاب الباقلاني بين يديك إذا أجلت نظرك الغائر وبصرك النافذ في أنجادها وأغوارها لم تقف له على أمر في باب الإعجاز لم يسبق إليه، و لم تجد باباً مغلقاً من الإعجاز يكون هو فاتحاً له والغير متطفلاً عليه ، بل الإمام الخطابي والواسطي والجاحظ وغيرهم قد سبقوا إلى ما قاله في "كتاب الإعجاز" نعم فصل ما أجملوه ، وفسّر ما أبهموه ، وأعطى كل مقام حقه من الشرح ، بيد أنه لا يستبعد مثل هذا من مثل الباقلاني ، ولا يورث العجب من

شأنه ، ومن البعيد أن يقال : لم يطلع على كلام من قبله في هذا الباب ، ثم مع هذا قد أسهب الكلام بحيث قد يسأم الناظر في أمور لا مناط عليها في كشف وجوه الإعجاز ، وأما كلام الشيخ فبين يديك أمعن فيه نظرك مرةً غير مرة ، وحدّد فيه بصيرتك بدا لك فيه مالم يسبق إليه إن شاء الله تعالىٰ ، بل هو السابق في هذه الحلبة الفسيحة التي تكلّ دون جو بها مهارى الأفكار.

وأما ثانياً : فقد قال الشيخ : إعجاز جميع القرآن أجلى عندي من طلوع الشمس عند شروقها ، وقد مرّ وجهه ، وكان أقصر آية عنده معجزاً ، ولم يختلف عنده الإعجاز وضوحاً في البعض وخفاءً في البعض الآخر ، نعم مراتب الإعجاز وطبقات البلاغة تتفاوت في ما بينها ، غير أنه أمر آخر ، وأما الباقلاني -رحمه الله- فقال في (ص-١٦٥) : وإن كنا نعتقد أن الإعجاز في بعض القرآن أظهر و في بعض أدق وأغمض اهـ. وقال في (ص-١٦٣) : وإن كانت الدلالة في البعض أبين وأظهر ، والآية أكشف وأبهر، اهـ. وقال في (ص-١٩٩) : ألا ترى أن الإعجاز في بعض السور والآيات أظهر وفي بعضها أغمض ، وقد لا يحتاج في النظر في حال بعضها إلى تأمل كثير ولا بحث شديد حتى يتبين له الإعجاز ، و يفتقر في بعضها إلى نظر دقيق و بحث لطيف حتى يقع على الجلية و يصل إلى المطلب ، ولا يمتنع أن يذهب عليه الوجه في بعض السور فيحتاج أن يفزع فيه إلى إجماع أو توقيف أو ما علم من عجز العرب قاطبةً عنه اهـ.

هذا ما تيسّر لي البحث عنه في هذه المقدمة عن وجوه الإعجاز وما هو الأعنى في هذا الباب وقد أتيت بها بحول الله وحسن توفيقه بلباب مافي هذا الباب بحيث يغني عن كتاب مفرد عند أولى الألباب ، والله ولي التوفيق والإعانة ، وصلى الله تعالىٰ على أفصح العرب العرباء وعلى آله وصحبه و بارك وسلم تسليماً كثيراً

كثيراً.

الكلام في الآيات المتشابهات

و يلائم أن نأتي في ختام بحث الإعجاز بما أفاده الجلال السيوطي في "إتقانه" في النوع الثالث والستين في الآيات المتشابهات أي الكلمات التي تؤدّي معاني متفقة و تختلف ألفاظها ، فقال رحمه الله : أفرده بالتصنيف خلق أوّلهم فيما أحسب الكسائي ، و نظمه السخاوي ، و ألف في توجيهه الكرماني كتابه "البرهان في متشابه القرآن" و أحسن منه "درة التنزيل و غرة التأويل" لأبي عبد الله الرازي، وأحسن من هذا "ملاك التأويل" لأبي جعفر بن الزبير ولم أقف عليه ، وللقاضي بدر الدين بن جماعة في ذلك كتاب لطيف سماه : "كشف المعاني عن متشابه المثاني" و في كتاب أسرار التنزيل المسمى: "قطف الأزهار في كشف الأسرار" من ذلك الجم الغفير ، والقصد به إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة ، بل تأتي في موضع واحد مقدماً و في آخر مؤخراً كقوله في البقرة : ﴿وادخلوا الباب سجداً و قولوا حطة﴾ و في الأعراف : ﴿وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً﴾ و في البقرة : ﴿و ما أهلّ به لغير الله﴾ و سائر القرآن ﴿و ما أهل لغير الله به﴾.

أو في موضع بزيادة و في آخر بدونها نحو قوله تعالىٰ: ﴿سواء عليهم أأنذرتهم﴾ في البقرة ، و في يٰس : ﴿و سواء عليهم أأنذرتهم﴾ و في البقرة ﴿و يكون الدين لله﴾ و في الأنفال : ﴿كله لله﴾.

أو في موضع معرفاً و في آخر منكراً أو مفرداً و في آخر جمعاً ، أو بحرف و في آخر بحرف آخر ، أو مدغماً و في آخر مفكوكاً ، و هذا النوع يتداخل مع نوع المناسبات ، و هذه أمثلة منه بتوجيهها ، قوله تعالىٰ في "البقرة" : ﴿هدى

للمتقين﴾ و في لقمان : ﴿هدى و رحمة للمحسنين﴾ لأنه لما ذكر هنا مجموع الإيمان ناسب المتقين ، ولما ذكر الرحمة ناسب المحسنين .

قوله تعالىٰ : ﴿و قلنا يا آدم اسكن أنت و زوجك الجنة وكلا﴾ و في الأعراف : ﴿فكلا﴾ بالفاء ، قيل : لأن السكنى في البقرة الإقامة و في الأعراف إتخاذ المسكن ، فلما نسب القول إليه تعالىٰ : ﴿وقلنا يا آدم﴾ ناسب ز يادة الإكرام بالواو الدالة على الجمع بين السكنى والأكل، ولذا قال فيه : ﴿رغدا﴾ و قال : ﴿حيث شئتما﴾ لأنه أعمّ ، و في الأعراف : ﴿و يا آدم﴾ فأتي بالفاء الدالة على ترتيب الأكل على السكنى المأمور باتخاذها ، لأن الأكل بعد الاتخاذ ومن حيث لا تعطي عموم معنى ﴿حيث شئتما﴾ .

قوله تعالىٰ : ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئا﴾ الآية ، وقال بعد ذلك : ﴿ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة﴾ ففيه تقديم العدل وتأخيره ، والتعبير بقبول الشفاعة تارةً وبالنفع أخرى ، و ذكر في حكمته أن الضمير في "منها" راجع في الأولى إلى النفس الأولى وفي الثانية إلى النفس الثانية ، فبيّن في الأولى أن النفس الشافعة الجاز ية عن غيرها لا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ، وقُدّمت الشفاعة لأن الشافع يقدم الشفاعة على بذل العدل عنها ، و بيّن في الثانية أن النفس المطلو بة بجرمها لا يقبل منها عدل عن نفسها ولا تنفعها شفاعة شافع منها ، وقَدّم العدل لأن الحاجة إلى الشفاعة إنما تكون عند ردّه ولذلك قال في الأولى : ﴿لا تقبل منها شفاعة﴾ و في الثانية : ﴿و لا تنفعها شفاعة﴾ لأن الشفاعة إنما تقبل من الشافع و إنما تنفع المشفوع له .

قوله تعالى : ﴿و إذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون﴾ و في إبراهيم : ﴿و يذبحون﴾ بالواو لأن الأولى من كلامه تعالى لهم ، فلم

يعدّد عليهم المحن تكرماً في الخطاب ، والثانية من كلام موسى فعدّدها .

و في الأعراف : ﴿يقتلون﴾ و هو من تنو يع الألفاظ المسمى بـ"التفنن" ، قوله تعالىٰ : ﴿و إذ قلنا ادخلوا هذه القر ية﴾ الآية ، و في آية الأعراف اختلاف ألفاظ ، و نكتته أن آية البقرة في معرض ذكر المنعم عليهم حيث قال : ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي﴾ إلخ ، فناسب نسبة القول إليه تعالىٰ ، وناسب قوله : ﴿رغدا﴾ لأن المنعم به أتم ، و ناسب تقديم : ﴿وادخلوا الباب سجدا﴾ وناسب "خطاياكم" لأنه جمع كثرة ، و ناسب الواو في ﴿وسنزيد﴾ لدلالتها على الجمع بينهما ، وناسب الفاء في : ﴿فكلوا﴾ لأن الأكل مترتب على الدخول .

و آية الأعراف افتتحت بما فيه تو بيخهم و هو قولهم : ﴿اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة﴾ ثم اتخاذهم العجل ، فناسب ذلك ﴿و إذ قيل لهم﴾ وناسب ترك ﴿رغدا﴾ والسكنى تجامع الأكل فقال : ﴿وكلوا﴾ و ناسب تقديم ذكر مغفرة الخطايا و ترك الواو في ﴿سنزيد﴾ .

و لما كان في الأعراف تبعيض الهادين بقوله : ﴿و من قوم موسى أمة يهدون بالحق﴾ ناسب تبعيض الظالمين بقوله : ﴿الذين ظلموا منهم﴾ ولم يتقدم في البقرة مثله فترك ، و في البقرة إشارة إلى سلامة غير الذين ظلموا لتصر يحه بالإنزال على المتصفين بالظلم ، والإرسال أشدّ وقعاً من الإنزال فناسب سياق ذكر النعمة في البقرة ذلك ، وختم آية البقرة بـ"يفسقون" ولا يلزم منه الظلم ، والظلم يلزم منه الفسق ، فناسب كل لفظة منها سياقه .

وكذا في البقرة : ﴿فانفجرت﴾ و في الأعراف : ﴿انبجست﴾ لأن الانفجار أبلغ في كثرة الماء فناسب سياقُ ذكر النعم التعبيرَ به .

قوله تعالىٰ : ﴿و قالوا لن تمسّنا النار إلا أياماً معدودةً﴾ و في آل عمران :

﴿معدودات﴾ قال ابن جماعة : لأن قائلي ذلك فرقتان من اليهود : إحداهما قالت : إنما تعذب بالنار سبعة أيام عدد أيام الدنيا، والأخرى قالت . إنما تعذب أربعين عدة أيام عبادة آبائهم العجل ، فآية البقرة تحتمل قصد الفرقة الثانية حيث عبر بجمع الكثرة و آل عمران بالفرقة الأولى حيث أتى بجمع القلة ، وقال أبو عبدالله الرازي : إنه من باب التفنن.

قوله تعالىٰ : ﴿إن هدى الله هو الهدى﴾ وفي آل عمران : ﴿إن الهدى هدى الله﴾ لأن الهدى في البقرة المراد به تحويل القبلة ، وفي آل عمران المراد به الدين لتقدم قوله : ﴿لمن تبع دينكم﴾ ومعناه أن دين الله هو الإسلام ، قوله تعالىٰ: ﴿رب اجعل هذا بلداً آمنا﴾ و في إبراهيم : ﴿هذا البلد آمنا﴾ لأن الأول دعا به قبل مصيره بلداً عند ترك هاجر و إسماعيل به وهو واد ، فدعا بأن تُصَيّره بلداً ، والثاني دعا به بعد عوده وسكنى جرهم به ومصيره بلداً فدعا بأمنه .

قوله تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾ و في آل عمران : ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا﴾ لأن الأولى خطاب للمسلمين ، والثانية خطاب للنبي ﷺ ، و"إلى" ينتهي بها من كل جهة ، و"على" لا ينتهي بها إلا من جهة واحدة وهي العلوّ ، والقرآن يأتي المسلمين من كل جهة يأتي مبلغه إياهم منها ، و إنما أتى النبي ﷺ من جهة العلو خاصة ، فناسب قوله : علينا ، ولهذا أكثر ما جاء في جهة النبي ﷺ بـ"على" وأكثر ما جاء في جهة الأمة بـ"إلى" .

قوله تعالىٰ : ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ وقال بعد ذلك : ﴿فلا تعتدوها﴾ لأن الأولى وردت بعد نواهٍ فناسب النهي عن قربانها ، والثانية بعد أوامر فناسب النهي عن تعديها و تجاوزها بأن يوقف عندها ، قوله تعالى: ﴿نزل عليك الكتاب﴾ و قال ﴿و أنزل التوراة والإنجيل﴾ لأن الكتاب أنزل منجماً

فناسب الإتيان بـ"نَزلَ" الدال على التكرير بخلافهما فإنهما أنزلا دفعةً .

قوله تعالىٰ : ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾ وفي الإسراء : ﴿خشية إملاق﴾ لأن الأولى خطاب للفقراء المقلين أي لا تقتلوهم من فقر بكم فحَسُنَ: ﴿نحن نرزقكم﴾ ما يزول به إملاقكم، ثم قال: ﴿و إياهم﴾ أي نرزقكم جميعاً ، والثانية خطاب للأغنياء أي خشية فقر يحصل لكم بسببهم ولذا حَسُنَ : ﴿نحن نرزقهم و إياكم﴾ .

قوله تعالىٰ : ﴿فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾ وفي فصلت : ﴿إنه هو السميع العليم﴾ قال ابن جماعة : لأن آية الأعراف نزلت أولاً وآية فصلت نزلت ثانياً فحسن التعريف أي هو السميع العليم الذي تقدم ذكره أولاً عند نزوغ الشيطان.

قوله تعالىٰ : ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾ وقال في المؤمنين : ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ وفي الكفار : ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾ لأن المنافقين ليسوا متناصرين على دين معين وشريعة ظاهرة : فكان بعضهم يهوداً وبعضهم مشركين فقال : ﴿من بعض﴾ أي في الشك والنفاق ، والمؤمنون متناصرون على دين الإسلام وكذلك الكفار المعلنون بالكفر كلهم أعوان بعضهم ومجتمعون على التناصر بخلاف المنافقين كما قال تعالىٰ : ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾ فهذه أمثلة يستضاء بها، وقد تقدم منها كثير في نوع التقديم والتأخير، وفي نوع الفواصل، وفي نوع أخر.

كلمات منثورة للشيخ رحمه الله

ليعلم أن للشيخ -رحمه الله- بدائع كلمات منثورة، أصبحت بها أطراف من القرآن منظومة ، فهي درر وجواهر، أو حكم و بصائر ، تجري مجرى الأصول في أساليب القرآن المجيد ، فأسردها متنسقةً منتظمةً مع إيضاح ، و بالله التوفيق والعصمة .

طريق القرآن غير طريق التأليف

كان يقول رحمه الله : حوار القرآن الكريم لم يجئ على سرد الجزئيات على نسق كتب الفتاوى الفقهية ، أو توزيعها على المواد العددية ، كما في المؤلفات الجديدة من علماء العصر ، و إنما جاء على حوار العرب بعطف بعض على بعض ، ومن ثم اختلفت الآراء في مواضيع الآي المتسقة في سياق واحد ، فربما يخفى أن موضوع الآية الثانية مثلاً هل هو موضوع الآية الأولى أو أعم منه أو أخص ، أو متعلق به آخر ؟ ولا يخفى أنه أمر مهم مما يحرى أن يعتنى به اعتناءً .

التقديم والتأخير في أجزاء الواقعة الواحدة

وكان يقول : ليس موضوع التنزيل العزيز استيعاب التاريخ و سرد الوقائع كلها ، فالإيجاز في مقام ، والإطناب في مقام آخر ، والتقديم في أجزاء الواقعة في موضع وتأخيرها في موضع آخر لحكم وأسرار لطيفة ربما تقصر عنها

العقول ، وللتنزيل العزيز في ذلك خصائص دقيقة تحتاج إلى استجمام القريحة ، وتلطيف الفكرة ، وإمعان للنظر بعيداً وليراجع الجزء الثاني من "الإتقان" من أنواع عديدة فترى فيها أسراراً من هذا الموضوع .

مشكلات القرآن تربو على مشكلات الحديث

وكان يقول: إن مشكلات القرآن تربو على مشكلات الحديث ، بيد أن الأسف على أن الأمة المرحومة لم تخدم القرآن مثل خدمة الحديث ، وكان الاعتناء به أهم منه بالحديث ، وقد مر قوله من أنه ليس في ذخيرة التفاسير المطبوعة تفسير للقرآن يوازي في الرتبة "فتح الباري لصحيح البخاري" حاوياً لمزاياه وصادعاً بغوامضه .

استيفاء التعبير القرآني يكون للغرض المطلوب

وكان يقول : نظم القرآن العزيز لا يستوفي الألفاظ لمحض استيفاء العبارة بعد ما تبين الغرض وفُهم المقام ، فربما يذر لفظاً يفتقر إليه على الظاهر حيث يكون غناء عنه بعد وضوح المقصود وانجلاء الأرب المطلوب.

دأب التنزيل في انتقاء الألفاظ

وقال رحمه الله : ومن رزقه الله ذوقاً في القرآن وحظاً في العربية يعلم أنه ليس يجري على الحوار العامي المبتذل بل له طريقة متميزة في انتقاء اللفظ واللحظ فيه إلى أصل الوضع واعتبار حقيقة ما وضع له ، ومن ثم يتعذر وضع لفظ بدل لفظ ، وذلك لجهل المخلوق بحقائق الأشياء وبالذي يفي بالمقام ويوفي حقه .

التكرار في التنزيل وحكمته

وقال رحمه الله : التكرار في القرآن إنما يكون بقدر مشترك تارةً وبقدر مغاير أخرى ، وقلّما يكون مكرراً محضاً ، وكنا في أرب إلى النوع الأول منه كثيراً ،

كيف ولو لم يكثر الأول لما سهل تفسير بعضه ببعض ، ولما تسنى وتأتّى توفير مأخذ الأحكام والفوائد ، قال الشيخ : وأريد به أنه يؤخذ من لفظ حكمٌ ومن لفظ آخر حكمٌ آخر في موضوع مشترك ، فيصير كمتن و شرح ، و إلا لكان كمتن صَرِف ، ثم إنه يؤخذ من التكرار الاعتناء والاهتمام بشأن ذلك الغرض المطلوب كما يقال : ذكرت الصلاة في القرآن تسعمئة مرة فصاعداً .

نظام القرآن المجيد وتناسق آياته

قال رحمه الله : والذي يتراءى من عدم ارتباط بعضه ببعض في بعض المواضع إنما يدل ذلك على علم ، وهو أن الأمور التي قصرت مداركنا على إبداء المناسبة فيها ، بينها ارتباطات وعلائق لا يحيط بعلمها إلا علام الغيوب ، ونظير ذلك أن الفقيه المجتهد يسرد أحكاماً في باب من الفقه مسلسلةً ، فربّما يقصر أذهاننا عن فهم المناسبات بينها ، فنحسبها جزئيات منتشرة وتكون عنده منضبطة تحت أصل وقاعدة ، وقال : والأعنى في باب النظم ارتباط بعض أجزاء الآية الواحدة ببعض ، وقد يشكل ذلك ، فالاعتناء بنظم الآية أهم منه بارتباط الآيات الكثيرة ، مثاله قوله تعالى: ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ فالأمر يشكل فيها بقراءة التشديد في قوله : ﴿فإذا تطهّرن﴾ مع قراءة التخفيف في قوله : ﴿حتى يطْهُرْن﴾ وظاهرٌ أن الطهور هو انقطاع الدم فقط ، والتطهّر أريد به الاغتسال بعد الانقطاع ، فكيف يصح ترتب قراءة التشديد على قراءة التخفيف؟ فيكون النظم على منوال: لا تعطه فلاناً حتى يدخل الدار فإذا دخل المسجد فأعطه .

وقد اختار الإمام أبو حنيفة –رحمه الله– جواز القربان عند انقطاع الدم لأكثر المدة ، والجواب – بعد أن أريد بالطهر الانقطاع فقط مع أنه محتمل للانقطاع

والاغتسال كليهما وبعد أن أريد بالتطهر الاغتسال بعد الانقطاع مع أن فيه وجوهاً من انقطاع الدم وغسل موضع الدم الاغتسال أو الوضوء - بأن ههنا مرتبتين :

الأولى : مرتبة نفس الجواز والتوسع واليسر والرخصة .

والثانية : مرتبة العزيمة .

والأحوط الأولى ، فيكون الدلالة على المرتبة الأولى بقراءة التخفيف ، وعلى الثانية في ضمن قوله : ﴿فإذا تطهّرن﴾ بياناً للأولى والمرضي عند الشارع في الأمر الصريح والإذن الواضح ، نعم إن الانقطاع يتيقن عند أكثر المدة ، فراعه الإمام أبوحنيفة رحمه الله ، وهذه اللطيفة لا تتأتى عند اتحاد القراءتين أو اتحاد مفهوميهما عند اختلافهما .

قال الراقم : وفي "روح المعاني" للسيد المفتي الآلوسي البغدادي كلام حاوٍ في اختلاف القراءتين في الغاية فقط ، فراجعه فإنه حسن ، ومما قال ناقلاً عن "الكشف" إن القراءة بالتشديد لبيان الغاية الكاملة ، وبالتخفيف لبيان الناقصة ، و "حتى" في الأفعال نظير "إلى" في أنه لا يقتضي دخول ما بعدها فتكون الكاملة ألبتة ، وبيانه أن الغاية الكاملة ما يكون غاية بجميع أجزائها وهي الخارجة عن المغيا ، والناقصة ما تكون غاية باعتبار آخرها ، و"حتى" الداخلة على الأسماء تقتضي دخول ما بعدها لولا الغاية ، والداخلة على الأفعال مثل "إلى" لا تقتضي كون ما بعدها جزءً لما قبلها ، فانقطاع الدم غاية للحرمة باعتبار آخره ، فيكون وقت الانقطاع داخلاً فيها ، والاغتسال غاية لها باعتبار أوله ، فلا تعارض بين القراءتين يعني حتى يطهرن بالتخفيف والتشديد ولعل فائدة الغايتين بيان مراتب حرمة القربان فإنها أشدّ قبل الانقطاع مما بعده. اهـ .

تنبيه في تفسير قوله تعالى ﴿فإذا تطهرن﴾

وهذا الذي ذكرته من الجواب هو طرف مما كان يلقيه الشيخ -رحمه الله- في الدرس ، ثم راجعت إلى ما ذكره الشيخ في "مشكلات القرآن" فوجدت كلامه هناك دقيقاً غامضاً يحتوي على أطراف وطرف من البحث ، فلم يغادر شيئًا مما يرد هناك من اختلاف القراءتين إلا وأجاب عنه ، وكذا أجاب مما يرد على الحنفية بما يشفي القلب و يطفئ الوحر ، فليراجع إليه ، وأورد منه شيئًا لتكميل الفائدة ههنا فأقول : وهذا الذي أوضحته في صدد الجواب ، فلعله ما أشار إليه بقوله : وللحنفية أن يحملوه على ما يعم الوجوب والاستحباب ، لعله يريد أن التطهر لما كان فعلاً اختيارياً بمباشرة المرء فيحتمل أن يتضمن المرتبتين : الوجوب والاستحباب ، فالغسل واجب للإتيان إذا كان الانقطاع لأقل المدة ، ومستحب إذا كان لأكثرها ، فهذا متقارب مما قررته و إن كان بينهما نوع تغاير حيث ليس هناك تفصيل للأقل والأكثر إلا إذا شرط التيقن في الانقطاع فهو في الأكثر من غير الغسل فلم يجب ، و في مادونه بالغسل فوجب ، فالمفاد إذن واحد.

ثم قال الشيخ : ﴿فإذا تطهّرن﴾ مرتبط بما قبل لا بقوله : ﴿حتى يطهرن﴾ يريد-رحمه الله- أنه ليس التفريع والترتيب على يطهرن حتى يشكل ارتباط الآية ونظمها ، بل على قوله : ﴿فاعتزلوا النساء﴾ وقال رحمه الله : وليس المراد بالتطهير هو الغسل بالماء أو الوضوء أو الاغتسال كما ذهبوا إليه وإنما المراد العمل في الطهارة ، وهو أحد المعاني السبعة عشر للتفعل كما في "البحر المحيط" (١٦٥-١) يريد -رحمه الله- ليس معنًى من هذه المعاني معناه الحقيقي بل معناه الحقيقي هو العمل في الطهارة ، وهو فعل اختياري ، وهو عام يشمل جميع هذه المعاني شمول الكلي أفراده وجزئياته ، وهذا المعنى خاصة للتفعل من خواصه السبعة عشر التي

ذكرها صاحب "البحر المحيط" في قوله تعالىٰ : ﴿فتلقى آدم من ربه﴾ إلخ ، قال : وإذا كان الأمر كذلك فقد أدخل في الآية أمرين : فعلاً اختيارياً وهو العمل في الطهارة ، وغير إختياري وهو الطهر بالانقطاع ، ولم يرد أيضاً ما أورده في "بداية المجتهد" من عدم الارتباط ، وصار الكلام نحو قوله : لا تعطه درهماً حتى يشرف بيته ، فإذا دخله فأعطه ، أو نحو : لاتعطوه حتى يدخل . فإذا دخل فأعطوه، اهـ. هذا ! والله أعلم.

تحقيق النسخ في القرآن

اختلف العلماء في إحصاء ما نسخ من القرآن ، فأكثر منه القدماء لتوسعهم في إطلاق النسخ على تخصيص العام وعكسه ، وتقييد المطلق وعكسه ، والاستثناء وتركه ، ورفع الحكم بالكلية وانتهاء علته ، وما زال المتأخرون يسعون في تقليله حتى الشيخ جلال الدين السيوطي جعله نحو عشرين نسخاً ، و زاد عليه في التقليل الشاه ولي الله الدهلوي حجة الهند ونابغتها في "الفوز الكبير" حتى حصره في خمسة ، والشيخ- رحمه الله- كان يقول : لا يكاد يوجد شيئ في القرآن المتلو منسوخاً في الحكم بحيث لا يبقى حكمه في وجه من الوجوه أو محمل من المحامل ، بل لاجرم يوجد حكمه مشروعاً في مرتبة من المراتب ، وحالٍ من الأحوال ، وزمانٍ من الأزمان ، وهذا الذي أفاده الشيخ أمرٌ مهمٌّ ، ذقه إن كنت من أهله ، ومن لم يذق لم يدر ، مثل سائر ، ومن ذاق وذاق فله فيه حكم و بصائر، والله الموفق والهادي إلى الحق.

وكان يقول : ليس في الكتاب العزيز حرف زائد لا دخل له في تصوير المعنى فحاشاه عن ذلك ، أقول : قال ابن الأثير في "المثل السائر" (ص-١٤٥) في

قوله تعالىٰ : ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ إن لفظة ما ليست بزائدة ولكنها وردت تفخيماً لأمر النعمة التي لان بها رسول الله ﷺ وهي محض الفصاحة ، ولو عُري الكلام منها لما كانت له تلك الفخامة ، وقد ورد مثلها في كلام العرب كقول زباء: أما إنه ليس ذلك من عوز المواس ، ولا من قلة الأواس ، ولكنه شيمة ما أناس ، فمعنى الكلام ولكنه شيمة أناس ، وإنما جاءت لفظة ما ههنا تفخيماً لشأن صاحب تلك الشيمة وتعظيماً لأمره ، ولو أسقطت لما كان للكلام ههنا هذه الفخامة والجزالة ، ولا يعرف ذلك إلا أهله من علماء الفصاحة والبلاغة ؛ وقول النحاة : إنها زائدة ، فإنما يعنون به أنها لا تمنع ما قبلها عن العمل كما يسمونها في موضع آخر كافة أي أنها تكفُّ الحرف العامل عن عمله فكذا ههنا لم تمنع الباء عن عمل الخفض ، انتهى ملخصاً.

وقال الرافعي في "إعجاز القرآن" (ص-٣٠٥ الطبعة الثالثة) : ثم الكلمات التي يظن أنها زائدة في القرآن كما يقول النحاة في قوله تعالىٰ : ﴿فبما رحمة من الله﴾ وقوله : ﴿فلما أن جاء البشير﴾ أن "ما" في الأول و "أن" في الثانية زائدتان أي في الإعراب ، فيظن من لا بصر له أنهما كذلك في النظم ، و يقيس عليه مع أن في هذه الزيادة لوناً من التصوير لو هو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته ، فإن المراد في الأولى تصوير لين النبي ﷺ لقومه و إن ذلك رحمة من الله فجاء هذا المدُّ في "ما" وصفاً لفظياً يؤكد معنى اللين و يفخمه وفوق ذلك ، فإن لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية لا يبتدأ هذا المعنى بأحسن منهما في بلاغة السياق .

ثم كان الفصل بين الباء الجارة ومجرورها وهو لفظة : رحمة ، مما يُلفّت النفس إلى تدبر المعنى ، و ينبه الفكر على قمة الرحمة فيه ، وذلك كله طبيعي في

بلاغة الآية كما ترى ، والمراد بالثانية تصوير الفصل الذي بين قيام البشير بقميص يوسف عليه السلام و بين مجيئه لبعد ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام ، وإن ذلك كأنه كان منتظرا بقلق واضطراب تؤكدهما وتصف الطرب لمقدمه واستفزازه غنة هذه النون في الكلمة الفاصلة وهي "أن" وعلى هذا يجري كل ما ظُنّ أنه في القرآن مزيد ، فإن اعتبار الزيادة فيه وإقرارها بمعناها إنما هو نقص يجلّ القرآن عنه اه.

العبرة لعموم اللفظ ليس على العموم

قال الشيخ -رحمه الله- : وما اشتهر بين علماء الأصول من أن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب ليس على عمومه ، والأهم الذي يُعنى في هذا الباب التفقد والتوخي لغرض المتكلم ، وليس يلزم أن يكون منطوق كلامه مساوياً لغرضه في سائر الأحوال ، بل ربّما يكون منطوق الكلام أعم من غرض المتكلم أو أخص ، وقد يكون مساوياً فالعبرة لعموم اللفظ يكون إذا لم يتعين غرض الشارع ولم يقم دليل على ما أراد منه ، كيف وقوله تعالىٰ : ﴿فاقرؤا ما تيسر منه﴾ هل يراد منه أن الاقتناع بآية واحدة من غير قراءة الفاتحة يكفي في الخروج عن العهدة للمصلّي ، وهل أتى الرجل بأمر القرآن إذا قرأ آيةً في الصلاة من دون رعاية الأمور التي علمناها من الخارج؟ وهل يكفي بأمر القرآن في العمل بأن يؤدّي الصلاة من تعيين للفاتحة وغيرها من الواجبات؟ و إذا كان هذا كأن القرآن أمر بشيء لم يعهد لنا في الشريعة والمعهود غير ، كلاّ ثم كلاّ ، ومن زعم ذلك فقد أخطأ الطريق وحاد عن المقصود ، بل كان غرض القرآن من هذا الأمر التخفيف في القراءة إبقاءً على المرضى والسَّفْر والمجاهدين رحمةً منه وفضلاً حيث شقّ عليهم الأمر بقيام الليل .

وأما مسألة ركنية الفاتحة ووجوبها فمسألة مفرزة تفرعت على الزيادة على القاطع بالظني كأخبار الآحاد ، فعند الحنفية تجوز في مرتبة الظنية أي يكون الزائد على القاطع أمراً ظنياً دون القطعي في الحكم وإن كان العمل به واجباً ، وعند الشافعية تجوز في مرتبة القطعية ، فالحنفية لم يهدروا العمل بالظني كما يُظنّ، بل قاموا بالفرق بين مرتبتي القطع والظن أداءً للحق بما يلائم رتبة كلّ ، وأما التعبير العام عند الحنفية بأنه لا يجوز الزيادة على كتاب الله بخبر الواحد فتعبير سمج غير ملائم فعند الحنفية و إن قضى تحق الأمر الذي جاء به القاطع بدون الفاتحة بيد أنه تأثم الرجل ووجبت عليه الإعادة إذا كان بالعمد ، و يلزم على التعبير العام أن يتحمل الكراهة في مصداق الأمر الذي جاء به القرآن وهو غير لائق ، نعم يراد من الأمر ما هو غرض الآمر لكنه يفرق بين المرتبين المنطوق القطعي والمعهود الظني ، وكان الإجمال في القطعيات لأمر ما مثل التوسعة والتيسير على الأمة ، فليحفظ ، هذا ما فهمته من كلام الشيخ رحمه الله .

ورأيت للإمام الحافظ ابن دقيق العيد –رحمه الله تعالىٰ– في كتابه "إحكام الأحكام" فائدة تحتوي بمثل ما أفاده شيخنا رحمه الله ، قال رحمه الله : اشتهر أن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب ولكن يجب أن يُتنبه للفرق بين دلالة السياق والقرائن الدالة على تخصيص العموم وعلى مراد المتكلم ، و بين مجرد ورود العام على السبب ولا تجرهما مجرًى واحداً فإن مجرد ورود العام على السبب لا يقتضي التخصيص به كنزول قوله تعالىٰ : ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ بسبب سرقة رداء صفوان ، فإنه لا يقتضي التخصيص به بالضرورة والإجماع ، أما السياق والقرائن فإنها الدالة على مراد المتكلم من كلامه ، وهي المرشد إلى بيان المجملات وتعيين المحتملات ، "إحكام الأحكام".

فائدة في الأحرف السبعة

قال أبو عبيد : هذه الحروف التي ذكرنا في هذين البابين من الزوائد لم يروها العلماء ولا احتملوها ، على أنها مثل الذي بين اللوحين من القرآن ، ولأنهم كانوا يقرؤون بها في الصلاة ، ويحكم بالكفر على الجاحد لهذين اللوحين خاصةً وهو ما ثبت في الإمام الذي نسخه عثمان بإجماع المهاجرين والأنصار و إسقاط لما سواه ، ثم أطبقت عليه الأمة ، فلم يختلف في شيء منه ، يعرفه جاهلهم كما يعرفه عالمهم ، وتورثه القرون بعضها عن بعض ، ويتعلمه الولدان في الكتب ، وكانت هذه إحدى مناقب عثمان العظام ، وقد كان بعض أهل الزيغ طعن فيه ، وتبين للناس ضلالهم في ذلك

والذي ألفه عثمان هو الذي بين ظهراني المسلمين اليوم، وهو الذي يُحكم على من أنكر منه شيئًا مثل ما يُحكم على المرتد من الاستتابة ، فإن أبى فالقتل ، فأما ما جاء من هذه الحروف التي لم يوجد علمها بالإسناد والروايات يعرفها الخاصة من العلماء دون عوام الناس ، وإنما أراد أهل العلم بها أن يستشهدوا بها على تأويل ما بين اللوحين دلائل على معرفة معانيه وعلم وجوهه ، وذلك كقراءة حفصة وعائشة : حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر ، وكقراءة ابن مسعود : والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهم ، ومثل قراءة أبي بن كعب : الذين يولون من نسائهم تربص أربعة أشهر ، فإن فاءوا فيهن ، وكقراءة ابن عباس : لا جناح عليكم أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج ، وكذلك قراءة جابر : فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم .

فهذه الحروف وأشباه لها كثيرة قد صارت مفسرةً للقرآن ، وقد كان يروى مثل هذا عن بعض التابعين في التفسير فيستحسن ذلك ، فكيف إذا روي

عن كبار أصحاب محمد ﷺ ثم صار في نفس القراءة ، فهو الآن أكبر من التفسير وأقوى ، و أوفى ما يستنبط به علم هذه الحروف معرفة صحة التأو يل على أنها من العلم الذي لا يعرف العامة فضله و إنما يعرف ذلك العلماء ، و أشياء من هذا كثيرة لو تدبرت وُجِد فيها علمٌ واسع لمن فهمه وليس معنى تلك السبعة أن يكون الحرف الواحد يقرء على سبعة أوجه ، هذا شيئ غير موجود ولكنه عندنا أنه نزل على سبع لغات متفرقة في جميع القرآن من لغات العرب ، يتلون الحروف فيها بلغة قبيلة والثاني بلغة أخرى سوى الأولى والثالث بلغة أخرى سواهما ، كذلك إلى السبعة ، وبعض الأحياء أسعد بها وأكثر حظاً فيها من بعض ، وذلك يعين في أحاديث ، والأحرف لا معنى لها إلا اللغات (من " فضائل القرآن" لأبي عبيد المخطوط).

فائدة في حديث ((أنزل القرآن على سبعة أحرف))

حديث : ((أنزل القرآن على سبعة أحرف)) روي من حديث عمر وعثمان وعبد الله و أبي بن كعب و معاذ بن جبل و حذيفة و هشام بن حكيم وابن عباس وعبد الرحمن بن عوف وأبي هريرة وأنس وغيرهم ، وبلغ من رواه إلى أحد وعشرين صحابياً ، وكان متواتراً كما يقوله أبو عبيد القاسم بن سلام ، والظاهر المتبادر من سياق طرق الروايات أن الغرض التيسير رخصةً في إزالة العسر للذين لم يتعوّدوا إلا لغتهم أو لهجتهم ، ثم نسخ ذلك بعد ما تعوّدوا وتمرّنوا، وبقي منها حرف واحد وهو لغة قريش فقط وعليه كان أصل النزول ، ثم نزل البقية تخفيفاً وتيسيراً في أول الأمر ، ثم زال هذا في آخر الأمر.

ثم هذه السبعة من لغات سبعة كما اختاره ثعلب وأبو عبيد والأزهري وآخرون ، ثم هذه اللغات إما من قبيل اختلاف الكلمات مثل حتى ، وعتى،

والأثيم، والفاجر ، وأقبل ، وتعال ، وهلم ، وعجل ، وما شاكل ذلك ، وإما باختلاف الحركات أو الإعراب ، أو من قبيل اختلاف اللهجات وكيفية النطق بالتلاوة من إدغام وإظهار ، وتفخيم وترقيق ، وتسهيل وتحقيق ، وإمالة وإشمام وغيرها ، فارتفع اختلاف الكلمات بعد التدرب والتعود ، وبقي اختلاف الحركات واللهجات ، واختلاف كيفية النطق مما كان أمكن إدراجها في حرف واحد أو ما يحمله رسم الخط ، والقراء ات السبعة ليست مرادة بالأحرف السبعة كما نقل عليه الإجماع أبوشامة وغيره ، إنما هي متواترة عنه ﷺ و باقية إلى يوم القيامة .

وهذا الذي اخترته كأنه مركب من قول ابن قتيبة ومن قول أبي عبيد ، وابن قتيبة فصّل مذهبه في كتابه في "تأويل مشكل القرآن" فراجعه من (ص-٦) إلى ما بعدها .

فائدة في ترتيب الآيات الكريمة

ترتيب الآيات الكريمة توقيفي اتفق عليه الأمة ، وأما ترتيب السور فقيل: توقيفي ، واختاره أبو جعفر النحاس وأبو بكر بن الأنباري ومال إليه البيهقي و يؤيّده روايات وإجماع الصحابة على ترتيب مصحف عثمان وإن كان سكوتياً ، وقيل : اجتهادي ، و ينقل عليه الإجماع ، أو هو مذهب جمهور العلماء ، منهم : مالك والقاضي أبوبكر الباقلاني وغيرهما ، وقيل : بعضها توقيفي وبعضها اجتهادي و يؤيّده روايات وقرائن ، والأولى أن يقال : إن ترتيب السور توقيفي بالفعل دون القول من فعله ﷺ ومن ترتيب المصاحف العثمانية ، ومن ههنا جاء بعض الاختلاف عن الصحابة كترتيب ابن مسعود لمصحفه حيث لم يكن قول صريح ونص واضح قولي في ترتيبها مثل ترتيب الآيات ، فجاء الاختلاف في طائفة منها ، هذا ما جنح إليه قلبي بعد التدبر، والله أعلم.

وقد فرغتُ من إنجازها ليلة الجمعة المباركة الثامنة عشر من شهر رجب سنة ١٣٥٦هـ ست وخمسين و ثلثمائة بعد الألف من الهجرة النبوية على صاحبها ألف ألف صلاة وتحية ، وكان الشروع فيها في أواخر الجمادى الأولى من تلك السنة ، اللهم تقبلها مني واجعلها خالصةً لوجهك الكريم ، واجعلها مولائي وسيلةً لفتح أسرار الذكر الحكيم والكتاب المبين على عبدك المسكين ، وذريعةً إلى هداية علوم كتابك المخزون المكنون للعبد المحزون ، اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلبيّ و نور بصري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي ، اللهم إني أسألك رحمةً من عندك تهدي بها قلبي ، وتجمع بها أمري ، وتلمُّ بها شعثي ، وترد بها غائبي ، وترفع بها شاهدي ، وتزكي بها عملي ، وتلهمني بها رشدي ، وترد بها ألفتي ، وتعصمني من كل سوء ، وصلى الله تعالىٰ على سيد المرسلين وإمام المتقين محمد وآله وصحبه أجمعين ، آمين ، آمين ، آمين ، يارب العالمين ، رب السماوات والأرضين ، ورب الأولين والآخرين .

الفهرس

***